دور العرب فى نشر الحضارة
فى غرب أفريقية

للدكتور حسن أحمد محمود
استاذ التاريخ الاسلامى ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

المقدمة :

انتشار الثقافة العربية الإسلامية في افريقية فصل من قصة الحضارة الإسلامية عامة ، فقد خضعت لنفس الظروف والأحوال التى خضعت لها الحضارة الإسلامية ومرت بنفس التطورات ، وهى بذلك خليقة أن تدرس في ضوء القوانين العامة التى تدرس الحضارة الإسلامية في ضوئها .

فمثلاً واجهت الثقافة العربية في إفريقية نفس المشكلة العامة التى جابهتها الثقافة الإسلامية عامة في العصور الوسطى، وهي مشكلة أو ظاهرة الالتقاء الثقافي أو التماس الثقافي ، الالتقاء بين الثقافة العربية والثقافات القديمة الموروثة .

ففى مصر التقت الثقافة الإسلامية الوافدة بثقافة اغريقية نابعة من جامعة الاسكندرية ، كما التقت بثقافة مصرية قديمة ونظم بيزنطية . ومن هذا الالتقاء ظهر لون من الحضارة إسلامي الصورة متأثر في جوهره بهذه الثقافات القديمة ، أعنى أن الإسلام أخذ وأعطى ، ومن هذا الأخذ والعطاء ظهرت الحضارة الإسلامية في مصر .

وفي بلاد المغرب التقت نفس هذه الثقافة بثقافات إغريقية ولاتينية وفينيقية وبتقاليد ونظم عرفتها قبائل المغرب منذ عهد بعيد ، فلما نمت الحضارة الإسلامية في المغرب ووضحت قسماتها ، وضحت فيها هذه الصورة الإسلامية العامة مختلطة بتأثيرات وتقاليد مغربية صرفة .

الوطن الزنجى الصميم شهد هذه الظاهرة حينما دخل إليه الإسلام وثقافته العربية ، وأهل البلاد حينما أسلموا لم يهملوا تقاليدهم القديمة ، إنما قاموا بنوع من الملاءمة بين تقاليدهم المحلية الموروثة وثقافتهم الإسلامية المكتسبة . ونشأت بعد فترة من الوقت حضارة إسلامية الشكل زنجية الطابع . تتضح هذه الحقيقة إذا درسنا بعض مظاهر الحياة في السلطنات الإسلامية التى ظهرت في غرب إفريقية مثل سلطنة سنغى ومالى أو السلطنات الإسلامية التى ظهرت في سودان وادى النيل .

كان من نتيجة هذا الالتقاء الثقافي أن نشأت في إفريقية بيئات حضارية محلية لكل بيئة منها مقوماتها الخاصة ولكن تجمعها في إطار واحد صفات إسلامية مشتركة من وحدة اللغة والدين والمثل .

ثم بدأت الثقافة الإسلامية في الشرق الأدني وفي أفريقية مع ميلاد العصر الحديث تجابه مشكلة من نوع المشكلات التى واجهتها طوال العصور الوسطى ، فقد بدأت الدولة العثمانية التى كانت تحمى شمال أفريقية وتحفظ التوازن في البحرين الأبيض والأحمر تتجه إلى الضعف . وظهرت على مسرح الأحداث دول غرب أوروبا الكبرى التى اطردت نهضتها طوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وبدأ الإنقلاب الصناعى وبدأت الثورة الصناعية تلفت أنظار أوروبا إلى أفريقية بحثاً عن أسواق الإستهلاك أو طلباً للمادة الخام .

وانتهى هذا التطور إلى غايته ، فاحتلت فرنسا مصر ثم جلت عنها ، واحتلت الجزائر ، وفرضت الحماية على تونس ومراكش ، واحتلت بريطانيا مصر والسودان وانتشر نفوذها في شرق أفريقية وغربها ، كما توطد النفوذ الفرنسى في السنغال والنيجر ومنطقة بحيرة شاد ، ووقع الإسلام في أفريقية في قبضة الدول الأوروبية الإستعمارية وجلبت معها ثقافة غربية ذات طابع خاص .

وبدأت هذه الثقافة الوافدة تلتقى بالثقافة الإسلامية في وقت غلب فيه المسلمون على أمرهم وضعفت وحدتهم السياسية . التقى العرب بالثقافات

القديمة وأخذوا منها مختارين ، والتقى المسلمون في القرن التاسع عشر بالثقافة الغربية مكرهين .

كانت الثقافة الغربية الوافدة ثقافة فتية متحررة من التقاليد البالية تظهر في كل يوم عن كشف جديد لمواطن القوة في الطبيعة ؛ والثقافة الإسلامية تعيش على الماضى .

وكان لابد للعالم الإسلامى في أفريقية أن يواجه هذه التطورات الجديدة التى وفدت على الحياة الإسلامية . وكانت الطبقة الواعية في العالم الإسلامى في موقفها من هذه المشكلة الثقافية فريقين : الفريق الأول أحس بما في الثقافة الغربية من خير قد يفيد جمهور المسلمين فسعوا إلى الإصلاح بالتقريب بين الثقافة الإسلامية القديمة والثقافة الغربية الوافدة ، وهذا الفريق يسمى فريق المجددين Modernist .

وهم كانوا يهدفون إلى محاربة البدع والعادات الضارة التى شاعت في حياة الناس والأخذ من عادات الغرب التى لا تسىء إلى الإسلام ، ثم إصلاح التعليم العالى وتطعيمه بالأفكار الجديدة والملاءمة بين الشريعة والفكر الحديث . ثم الدفاع عن الإسلام في وجه التأثيرات الأوروبية والهجمات المسيحية ، وذلك بدارسة الأفكار الغربية والرد عليها وإحداث ثورة في طريقة إدراك المعرفة ووسيلة اكتسابها . ونادى المجددون بضرورة تحرير الإسلام من جموده والقضاء على القيود التى يفرضها الفقهاء على المعرفة .

وامتدت آراء المجددين إلى موضوع الخلافة ونظامها ، فقد تغيرت نظرتهم إليها لتأثرهم بالمبادىء الغربية ، فهم لا ينكرون أن الإسلام يجمع بين الدين والدولة ، ولكنهم لايعترفون بالخليفة إلا إذا كان منفذاً وممثلاً لشريعة الله . فلما ساءت حال الخلافة العثمانية أخذ المجددون يفكرون في وسائل جديدة تسد الفراغ الذى تتركه . وامتدت آفاقهم إلى ميدان الشريعة محاولين الملاءمة بين الأحوال الشخصية عند المسلمين وبين الآراء الجديدة .

تتمثل حركة التجديد هذه في مصر في الشيخ محمد عبده وبرنامجه في الإصلاح . وامتدت حركات المجددين فشملت العالم الإسلامى كله ، مثلها في الهند محمد إقبال ، وامتدت إلى تركيا كذلك .

واتخذت في بلاد المغرب التي خضعت للاحتلال الفرنسي المباشر صوراً أخرى، فقد بدأ التجديد من أعلا الطبقة العليا التي تقلد الحكام الفرنسيين ثم أخذ ينتقل هذا التقليد حتى يصل إلى قاع المجتمع . على أن الهوة بين أهل الجديد والقديم لم تكن تتجه إلى الاقتراب أو الاندماج كما حدث في مصر إنما كانت تتجه إلى العمق والتباعد ، فالمتمسكون بالتقاليد القديمة ازدادوا تمسكاً بها واشتدت مطالبتهم بالعودة إلى القديم شأنه ، على حين كانت الطبقة الأخرى من المجتمع يدفعها مركب النقص إلى استخدام أدوات أوروبا ووسائلها والتشبه بالأوربيين في كل شئ واستخدام اللغة الفرنسية في المعاملة والتخاطب

أما الفريق الآخر من المسلمين فقد رأى أنه لانجاة من آراء الغرب ولا مهرب من الضعف الذى شاع في الحياة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية المتداعية إلا بالحركات السلفية والعودة إلى ماضى الإسلام وأن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الإسلام وتطهيره .

وقد اتخذ هذا الاتجاه صورتين : صورة علمية هادئة تقوم على الدراسة والوعظ والتعليم وتنبيه الناس إلى ما في الإسلام من خير وما في حضارة الغرب من شر؛ تتمثل هذه النزعة في مدرسة الشيخ محمد رشيد رضا وجماعة المنار التي عملت على تقليد الحنابلة وابن تيمية والتمشي مع الوهابية الجديدة . وقد وجد هؤلاء استجابة لهم في العالم الإسلامى كله في المغرب والهند وأندونيسيا وقامت في الجزائر جمعية العلماء لمحاربة الصوفية ونشر تعاليم القرآن وامتد أثرها إلى تونس ومراكش .

أما الصورة الأخرى فهى أن قوماً رأوا أنه لايصلح الحال إلا بالسيف وإعلان الجهاد لتطهير الإسلام من البدع وتجنيد المسلمين لإنقاذ الإسلام مما أصابه على يد العثمانيين الضعفاء والاستعمار الغربى الوافد ، فقامت الحركة الوهابية في بلاد العرب فكانت حركة حنبلية مثل حركة ابن تيمية ، وأعلنت مبدأ الثورة على الحكومات الباغية وانتشرت دعوتها في البلاد التي خضعت للاحتلال الغربي .

وقد شارك مسلمو أفريقية العالم الإسلامى في اتجاهاته ، فالوهابية لقيت استجابة سريعة في القارة الأفريقية فأثرت في السنوسية ، ورغم أن السنوسية طريقة صوفية إلا أنها تأثرت بتعاليم الدعوة الوهابية في مناهضة الاستعمار وثقافته . وامتد أثر الوهابية مخترقاً نطاق الصحراء إلى غرب إفريقية فاعتنقها عثمان بن نورى وأعلن الجهاد ضد قبائل الحوصه وقضى على إمارة غوبير في سنة ١٨٠٤ وأقام سلطنة سكت في شمال نيجيريا على أساس الدعوة الوهابية .

ونهج الحريصون على ثقافة الإسلام نهجاً آخر في الإصلاح السلفى فلجأوا إلى المهدوية . هذه الحركات التى تنبثق من نفوس المسلمين كلما ساء الحال وغضب الناس على أولياء الأمور ، فتؤمن الأكثرية بمهدى ينتظر قدومه ليخلص الناس مما هم فيه .

وظهرت انتفاضات مهدوية في إفريقية في القرن التاسع عشر . ظهرت هذه الحركة في سودان وادى النيل على يد محمد احمد المهدى . وانتشرت هذه الحركات المهدوية إلى غرب إفريقيا فظهرت حركة أحمدو بن محمد المعروف بأحمد ولوبو في منطقة ماسنة ، وشهد الصومال حركة مماثلة قام بها محمد بن عبد الله حسان وهى تشبه من وجوه كثيرة مهدية السودان .

وامتدت حركة الإصلاح إلى الطرق الصوفية فصحبتها نهضة شاملة ، فعادت الطرق الصوفية القديمة إلى الانتشار ، ونشأت طرق جديدة ، وازداد نشاط التيجانية والقادرية ، وانتشرت الميرغنية في شرق إفريقية . واتخذ بعضها طابعاً تبشيرياً صرفاً مثل القادرية والسنوسية واتخذ بعضها الآخر طابعاً حربياً مثل التيجانية .

واتحدت أهداف المصلحين مع أهداف الصوفية بسبب التقائهما في مقاومة الحضارة الغربية والنفوذ الأوروبي والنزعة المادية والتبشير المسيحى .

على كل حال انتهت انتفاضات القرن التاسع عشر وحركاته الإصلاحية ولم تستطع أن تنقذ العالم الإسلامى من المصير المحتوم ؛ واستسلم المسلمون ؛ ونشر الاستعمار نفوذه في القارة الأفريقية شمالها وغربها ووسطها وشرقها

وخضعت الثقافة الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين للتأثيرات الغربية على نطاق واسع ، واختلفت مناهج المستعمرين وأساليبهم في معالجة أمور المسلمين في إفريقية والنظر إلى حضارتهم وثقافتهم .

في هدى هذه التطورات سنعرض لدور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقية ، منذ البداية حتى خضوع هذه البلاد للنفوذ الغربي .

١ ـ التحديد الجغرافى :

المقصود بغرب أفريقية تلك المنطقة الفسيحة التى تمتد من المحيط الأطلسى في الغرب حتى سودان وادى النيل في الشرق والتى تقع بين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال وبين نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب .

أو بمعنى آخر نفس المفهوم الجغرافي الذى عرفه الرحالة والجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى باسم بلاد السودان ، فقد كانوا في الحقيقة يطلقون اسم بلاد السودان على هذه المناطق التى حددناها .

ومن الغريب أن هذه المناطق التى تقاسمتها اليوم المصالح والأهواء كانت تنعم في الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادى حتى القرن التاسع عشر بوحدة بشرية وثقافية كبيرة عميقة الجذور ، وكانت في الحقيقة تخضع لمؤثرات بشرية وثقافية واحدة .

وكانت التأثيرات عادة تنطلق من الغرب متجهة صوب الشرق ، إما منطلقة من مصب السنغال أو من منحنى النيجر أو من المراكز الثقافية الهامة في المنطقة مثل تنبكت وجنى وكانو وغيرها .

وقل أن تجد تأثيرات بشرية ذات أثر واضح تخطت حدود سودان وادى النيل متجهة صوب الغرب لتترك أثراً واضحاً في تكوين المنطقة البشرى والحضارى . والقبائل العربية التى دخلت دارفور وقفت عند حدود السودان الغربية بل تعرضت دارفور نفسها لتأثيرات قادمة من الغرب ، حتى العناصر العربية التى تدفقت إلى غرب إفريقية إنما جاءت من بلاد المغرب منطلقة إلى مصب السنغال ثم متجهة صوب الشرق .

وكانت مناطق السافانا الفسيحة التى يحدها النطاق الصحراوى من الشمال والنطاق الغابي من الجنوب قلب الإقليم النابض ، مراكزها الثقافية حملت مشعل العروبة والإسلام وشعوبها تبنت الدعوة ولعبت الدور الأول في تاريخ الإسلام

٢ ـ دخول الاسلام والحضارة العربية الى غرب افريقية :

تاريخ غرب إفريقية حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت توجهه ظاهرتان : هجرات وغارات متصلة لبعض قبائل البربر على الوطن الزنجى في الجنوب ؛ ثم شعوب بدائية من أهل البلاد تتعرض لهذه الهجرات وتحتك بها وتتأثر بها وتقتبس الكثير من نظمها الاجتماعية والعسكرية والثقافية .

هذه الهجرات والاتصالات كانت ظاهرة واضحة منذ القرن الأول الميلادى، غير أنها لم تكن تتجاوز مجرد الانتقالات الموسمية لقبائل المغرب عند أطراف الصحراء ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التى أنشأتها الشعوب الزنجية أو مجرد غارات خاطفة على أوطان الزنوج لاقتناص العبيد ؛ هذا فضلاً عن الاتصال التجارى بين المغرب وأسواق إفريقية(١) .

غير أن هذه الهجرات اتخذت طابعاً آخر منذ بدأ العرب يبسطون نفوذهم على المغرب كله ، فقد أخذت هذه القبائل تتجه صوب الجنوب في حركات مستمرة للإقامة الدائمة ، وهذا التحول سببه أن الرومان لم يكن نفوذهم يتوغل إلى أبعد كثيراً من السهل الساحلى ، وأقاموا خطا من الحصون يحمى منطقة نفوذهم من القبائل البدوية ، أما العرب فقد أخضعوا قبائل البدو لسلطانهم وأصبح هؤلاء البدو جزء من عالم المغرب الإسلامى .

وكان المغرب كلما تعرض لأزمات سياسية كلما أوغلت القبائل في هجرتها إلى الجنوب وبدأت في أواخر القرن العاشر الميلادى تستقر في منطقة أدرار(٢) ، بل وصل بعضها إلى مشارف السنغال .

هذه القبائل المهاجرة كانت تحيا حياة مستقلة ذات طابع حربي ، محافظة على كيانها . وكانت تعتمد على الخيل والإبل وتوسع في مجال أعمالها العسكرية

---

(١) Fage : West Africa, pp. 10 — 10.

(٢) Palmer p. 7.

وينتهى أمرهم بأن يفرضوا نفوذهم بالقوة على طوائف مسالمة من الزنوج [١] ثم ينتشر نفوذهم في إقليم السافانا المكشوف شمال نطاق الغابات .

وتكتفى هذه الجماعات البدوية بإخضاع الشعوب الزنجية بقوة السلاح ثم تفرض الجزية ، ثم يتم الاختلاط التدريجى بين الغالب والمغلوب وتنشأ طبقة من المولدين تتولى مقاليد الأمور وتتعلم من سادة الأمس فنونهم العسكرية ونظمهم الاجتماعية والدينية .

ويعنينا من قبائل البربر التى كان لها هذا الأثر في تاريخ غرب إفريقية الطوارق أو الملثمين الذين قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وغرب إفريقية،وحملوا الإسلام هناك،وكانوا العامل الموجة لتاريخ الإقليم وثقافته .

هذه القبائل كانت تنتشر في وطن متسع يمتد جنوب النطاق الجبلى الذى يخترق شمال إفريقية من الشرق إلى الغرب . ويمتد هذا الوطن من غد امس جنوب طرابلس حتى المحيط الأطلسى في المناطق الصحراوية التى تلى سلسلة الجبال المعروفة بجبال أطلس[٢] ، كما يمتد هذا الوطن جنوباً حتى مصب السنغال ومنحنى النيجر ويتخطى هذا النهر إلى الشرق حتى بلاد برنو .

ولكى تكمل الصورة نعرض للطرف الآخر ونعنى به الشعوب الزنجية المقيمة في هذا الجزء من القارة ، توزيعها الجغرافي شمال نطاق الغابات وفي أقصى الغرب، وعلى الخصوص في بلاد فوتا .

فعلى طول ضفتى السنغال نزل شعب التكرور والسربر والواوف. أما في الشرق على الضفة اليسرى للنيجر فقد نزل شعب السنغى ويتألف من عشائر من الزراع أو صيادى الأسماك . وبين السنغى والتكرور أو في المنطقة الممتدة بين أعالى السنغال في الغرب وبحيرات النيجر في الشرق ونطاق الغابات في الجنوب تنزل الشعوب المتكلمة بلغة الماندى[٣] .

---

(١) De la chapelle : Hesperis 1930, T, X, p. 49.

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٤ .

(٣) Fage : West Africa pp. 10 — 10.

وقبل أن تؤدى هجرات البربر إلى قيام إمارات الحوصا في القرن العاشر الميلادى، كانت المنطقة الممتدة من النيجر في الغرب إلى بحيرة شاد في الشرق قد تسربت إليها عناصر حامية جاءت من الشرق متدفقة من هضبة الحبشة عبر أعالى النيل وامتد تأثيرها في الغرب حتى موطن اليوروبا .

كانت هذه الشعوب الزنجية تعيش على هيئة جماعات مسالمة يرأسها أكبر الرجال سناً ولكل منها كهنة ، وكانت تدين بالوثنية وكانت القرى تنتشر حول القرية الكبرى التى ينزل فيها الزعيم الأكبر . وقد وصلهم بصيص من الحضارة عبر الصحراء فعرفوا صناعة الذهب والحديد وبناء الزوارق وقطعوا مساحات واسعة من الغابات وهيئوها للزراعة بوسائلهم البدائية .

وقد استطاع شعب من هذه الشعوب قبل دخول العرب إلى المغرب بوقت طويل أن يؤسس دولة ،ونعنى به شعب الماندى بصفة عامة وفرع السوننكه بصفة خاصة ، واتخذت هذه الدولة إسم غانه[١] .

ويتفق كل من بارت ودى لافوس على أن قيام دولة غانة كان عام ٣٠٠ ميلادية وأن ذلك يعزى إلى تأثيرات وفدت من الخارج أو على الأقل إلى طبقة حاكمة وافدة احتكرت الزعامة وتزوج أفرادها من الوطنيين .

وقد استطاعت هذه الدولة في الفترة بين القرن الرابع الميلادى ومستهل القرن الثامن أن تتوسع توسعاً كبيراً . وفي آخر القرن الثامن استطاع شعب السوننكه أن يرث الدولة ، فقد استنفد المهاجرة أغراضهم واندمجوا في السكان وعلموا الناس نظمهم وتجاربهم واستغل السوننكه هذه المواهب للاستيلاء على الحكم في غانة سنة ٧٧٠ ميلادية .

وقد تتابع امتداد هذه الدولة ، فاخضعت بلاد فوتا حيث التكرور والولوف والسربر ووصل هذا التوسع إلى غايته في مستهل القرن الحادى عشر[٢] ووصل نفوذ الدولة شرقاً حتى قرب تنبكت وإلى النيجر الأعلا وأعالى السنغال ، بل امتد هذا النفوذ شمالاً حتى المغرب الأقصى .

(١) انظر مادة غانة : دائرة المعارف الاسلامية .

Cooley : The Negroland of the Arabs p. 5, 8, 44-45.

(٢) Hogben : The Muhammadan Emirates of Nigeria

وكان دخول الإسلام إلى غرب إفريقية يتوقف على أمرين : إسلام شعب الطوارق من ناحية ثم ضعف مقاومة دول غانة من ناحية أخرى، وتسرب الإسلام إليها لتفسح الطريق للتيار الإسلامى لينطلق إلى الجنوب دون قيد . فكيف أسلم هؤلاء البربر ؟ وكيف خضعت غانة ثم تلاشت ؟

بدأت المحاولات الأولى لانتشار الإسلام بين الطوارق أثناء الفتوحات العربية في بلاد المغرب . فقد توغل عقبة بن نافع الفهرى في ديار الطوارق . وهناك روايات تذهب مذهب المغالاة فتقول أن عقبة دخل إلى غرب إفريقية وفتح بلاد التكرور وغانة . والرحالة بارت[1] يؤيد هذه الروايات بقوله إن بعض الأخبار المحلية تدعى أنه كانت بغانة جالية إسلامية سنة ٦٠ هجرية وأنه قد بنى بها عدد من المساجد .

مهما يكن الأمر فإن عقبة كان أول من حمل الطوارق على الإسلام وأول عربي ارتاد هذه الجهات[2] ففتح الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا يخترقون الصحراء إلى مدينة أودغشت ؛ حتى إذا كان عهد الفاتح موسى ابن نصير نجده يتصل بموطن الطوارق ويردهم إلى الإسلام وينشىء مسجداً في مدينة أغمات التى ستغدو من أهم مراكز الإسلام والثقافة العربية في المغرب الأقصى .

ولا يبعد أن يكون موسى قد ولى زعماءهم بعض المناصب فازداد إقبالهم على الإسلام طمعاً في المشاركة فيما ينعم به الحكام العرب ، وقد اشترك فريق منهم في جيش فتح الأندلس[3] ، ومن هنا تأكد إسلام الطوارق في ذلك الوقت .

وقد تابع خلفاء موسى نشر الدعوة إلى الإسلام بين البربر، خصوصاً في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أرسل طائفة من التابعين انتشروا في البلاد يعلمون الناس أمور دينهم[4] .

---

(١) Barth : Travels and discoveries p. 579, vol. V p. 27.

(٢) الادريسى : المغرب وأرض السودان ومصر ص ٦١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٤) الدباغ : معالم الايمان ج ١ ص ١٥٤ .

ثم قامت دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى ، وعملت على توحيد البلاد وإقرار السكينة ، وكان نسبهم العلوى سبباً في توحيد القبائل المختلفة . وقد نجح الأدارسة في إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر وتوسعوا شرقاً حتى تلمسان(١) وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف. كذلك بسطوا سلطانهم على النواحى الشمالية من ديار الطوارق وأصبحت هذه البلاد جزءاً من أملاكهم ؛ لذلك فإن إسلام الطوارق الذى بدأ في عهد عقبة تأكد في عهد الأدارسة في القرن الثالث الهجرى .

وكان إسلام الطوارق تماماً في القرن الثالث الهجرى ذا أثر بالغ في تاريخ غرب إفريقية ، إذ أدى إلى قيام حلف قوى يجمع الطوارق كلهم ، وأدى هذا التوحيد إلى مجموعة من التوسع صوب الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية . ونجح الطوارق في ظل هذا الحلف في محاربة غانه وزحفوا حتى أودغشت واتخذوها حاضرة لهم . ولكن هذا الحلف تفرق سنة ٣٠٦ هـ ، واستعادت غانة ما فقدته ، وظلت طوال الخمسين سنة التالية أعظم قوة في غرب إفريقية .

غير أنه ترتب على هذا الاحتكاك المتصل بالتجارة أو الحرب أن تسربت الحضارة العربية إلى غانة نفسها ، فقد ذكر أحد الرحالة المسلمين الذين زاروا هذه البلاد سنة ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ ميلادية أن بمدينة غانة حيين واحد للمسلمين به إثنا عشر مسجداً وعدد من الفقهاء وأهل العلم .

وكان مضى الإسلام إلى أبعد من هذا يتوقف على مقدار مايحققه الطوارق من وحدة أو ما يقدمونه من جهاد أو يبذلون من جهد لمقاومة مملكة غانة ، ثم القضاء عليها ليفتحوا الباب أمام الإسلام لينطلق إلى الجنوب كما انطلق إلى السودان بعد سقوط ممالك النوبة المسيحية .

وقد تحقق ذلك كله بفضل دعوة المرابطين التى انبثقت بين هؤلاء الطوارق في أواخر القرن الخامس الهجرى على يد زعيمهم عبد الله بن ياسين

---

(١) Terrasse : Hist. de Maroc. p. 11.

الذى هاجر إلى جزيرة نائية في مصب السنغال وعاش هناك عيشة التصوف والزهد ، وكان الناس يسمعون أخباره فيرحلون إليه وينضمون لرباطه ومن هنا اتخذ أتباعه اسم المرابطين .

في هذه الجزيرة عمل على خلق جيل جديد من المسلمين وأعدهم لحياة شاقة من الجهاد وأعدهم للحرب ، ونمى في نفوسهم الإسلام الصحيح ، وخلق منهم طائفة فدائية تعمل على إحياء السنة ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحقق الوحدة بين الطوارق على هذا الأساس الدينى الصرف .

ولما زاد عدد أنصاره من المرابطين خرج من رباطه لينفذ السياسة التى رسمها لنفسه ، وبدأ بالجهاد فاتجه إلى الشرق إلى منحنى النيجر[1] ودخل مدينة أودغشت وانتزعها من ملوك غانه ؛ واستبسل أنصاره استبسالاً لم يعرفه الطوارق من قبل ، ثم اتجه إلى الجنوب واستجاب له التكرور وحاربوا إلى جواره .

وفي الوقت الذى اندفع فيه المرابطون صوب المغرب والأندلس كانت جموعهم تتابع جهود عبد الله بن ياسين في غرب إفريقية . وكان أمير المرابطين أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين في الجنوب ، واستطاع بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يستولى على القسم الأكبر من غانة وأن يضمه إلى دولة المرابطين[2] .

وقد انكمش سلطان غانه واستقلت بعض أقاليمها ، ثم أسلم ملوكها وعملوا على متابعة الجهاد بوسائلهم وتحولت غالبية الشعب الغاني إلى الإسلام .

وكان دعاة المرابطين قد نشروا الإسلام في المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر ، وعلى ضفاف السنغال ، كما أسلم شعب التكرور . أما القبائل التى لم تعتنق الإسلام فقد بحثت لها عن أوطان أخرى ، هاجر السربر صوب الجنوب ، وهاجرت قبائل أخرى صوب الغرب وهاجر الفولبه إلى منطقة فوتاتورو.

---

(١) ابن أبى زرع : روضة القرطاس ص ٧٩ .
(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٨ .

ومع المرابطين دخلت الثقافة العربية من مدارس المغرب والأندلس ، فقد وحدوا بين الأندلس والمغرب وغرب إفريقية في دولة واحدة ، وتم في عهدهم أعظم أثر في الميدان الثقافي حينما أسست مدينة تنبكت التى أصبحت حاضرة الثقافة العربية في غرب إفريقية .

تأسست هذه المدينة آخر القرن الخامس الهجرى . ويذكر السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان[١] أن قوماً من الطوارق اختطوا هذه المدينة ، وهم قوم من البدو قدموا هذه البلاد للرعى ، فكانوا يصيفون على ضفاف النيجر في موقع هذه المدينة ثم يرحلون في الخريف إلى أوطانهم . ثم استقر بهم المقام بسبب استقرار الحياة في عهد المرابطين فأنشئت المدينة وأصبحت سوقاً هاماً يفد إليها التجار بطريق النهر أو تأتيها القوافل عن طريق مراكش . ثم وفد إليها العلماء من المغرب والأندلس ومصر وطرابلس وبنى بها مسجد جامع ، وبنيت من حولها الأسوار وحلت المساكن المبنية من اللبن محل الأكواخ[٢] .

على كل حال انتهى الأمر بانتشار الإسلام على نطاق واسع وتوطنت الثقافة العربية في مركزين مشهورين في تنبكت وجنى ، وضعف ملك غانه ثم تلاشى أخيراً .

٣ ـ ظهور الأمارات الاسلامية المستقلة وازدهار الثقافة العربية :

أسلم أهل البلاد الأصليين وتأثروا بتقاليد الإسلام واقتبسوا من نظمه واستفادوا من خبرات البربر الذين خالطوهم واتصلوا بهم ، وهذا تطور طبيعى في تاريخ الإسلام في أى بلد من البلاد ، وهو نفس التطور الذى حدث في مصر أو في بلاد المغرب ، فكان طبيعياً أن تشهد غرب إفريقية دولاً إسلامية من أهل البلاد ذوى الدم الزنجى الخالص ، أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر .

(١) Meek : The northern tribes of Nigeria, vol. I p. 61.

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ٢١ .

وقد عرض فيدج Fage [١] في كتابه West Africa لهذه الإمارات محاولاً أن يفسر أسباب قيامها واتساعها ثم اضمحلالها ، وهو يرى أن هذه الإمارات تعتمد في تكوينها على قوات من الخيالة أو ركاب الإبل فتكتسب عنفاً وسرعة في الانتشار في منطقة السافانا الممتدة من الغرب إلى الشرق . وقد يصل نفوذها إلى مشارف الغابات ثم يتوقف ، لأن الخيل أو الإبل لاتقوى على اختراق هذا النطاق . والشعوب التى تدين لهذه الإمارة بالطاعة تحتفظ بتقاليدها المحلية ولغاتها ، لأن الحاكمين لايعنيهم إلا مجرد دفع الجزية . وتبقى الإمارة ويطول حكمها إذا استطاعت الاحتفاظ بجيشها سليما .

لكن ثمار النصر وتكدس الأموال يضعف الروح العسكرية ، وإذا تزوجوا من أهل البلاد الأصليين ضعفت فيهم روح العصبية ، وسرعان ما تتعرض الإمارة لغارات جديدة من البدو ثم تختفى .

والنشاط الإدارى لمثل هذه الدول لايتجاوز مجرد تحصيل الجزية ، وهذا الأمر يتوقف بدوره على قوة الدولة . وهذا المجال الواسع الذى تنتشر فيه هذه الإمارات يتطلب من الحاكم الاستبداد بالسلطة ثم التجول المستمر بصحبة الجيش للقضاء على الفتن .

والحكم في المناطق النائية يعهد به عادة إلى فريق من النواب أو القواد ، قد يغريهم البعد بالطمع في الاستقلال أو الثورة ، وفي بعض الأحيان يولى ولاة من أهل البلاد فيؤسسون إمارات تستقل عن الإمارة الكبرى .

هذه الدول بعد قيامها تتخذ مظهراً إسلامياً واضحاً يتمثل في خروج الأمراء المسلمين إلى الحج في مواكب حافلة ، واتصالهم بالدول الإسلامية المعاصرة ، والتشبه بهذه الدول في نظم الحكم ، واتخاذ اللغة العربية لغة الدولة ، واتخاذ الكتاب من أصحاب العلم والمعرفة ، والاستعانة بالعلماء والفقهاء ، وإنشاء المساجد وتشجيع الحركة العلمية وإيفاد الطلاب لمراكز العلم في البلاد الإسلامية ، والاشتراك في الجهاد في المناطق المجاورة لهم التى تنزل فيها الشعوب الوثنية . وإليك أهم الإمارات التى ظهرت في هذه المنطقة .

---

(١) Fage : West Africa, pp. 17 - 18.

سلطنة مـالى

هذه السلطنة أسسها شعب زنجى أصيل[١] هو شعب الماندنجو[٢] ، وإسم هذه السلطنة يؤيد هذا القول ، فكلمة مالى تحريف لكلمة ماندنجو ومعناها المتكلمين بلغة الماندى . فالفولانيون يطلقون عليهم إسم مالى ، والبربر إسم مل أو مليت . والمؤرخون العرب يخلعون عليهم لقب مليل ، على حين نجد الحوصة يسمونهم بالونجارة .

هذا الشعب الزنجى الخالص اعتنق الإسلام في آخر القرن الحادى عشر في الحركة الدافعة الكبرى التى صحبت قيام دولة المرابطين وعكوفهم على الجهاد في منطقة السودان الغربي .

وكان بعض هؤلاء الناس قد أنشأوا دويلة صغيرة انفصلت عن غانة ، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتي يطلق عليها المؤرخون اسم مملكة كانجابا .

هذه الدويلة التى أسلمت أرادت أن تشارك بنصيب في الحياة الإسلامية وأن تؤسس لها ملكاً إسلامياً خالصاً .

وكان توسع هذه الدولة يستجيب للأحداث السياسية المعاصرة ولنصيب الدول المحيطة بها من القوة أو الضعف .

مصداق ذلك أن توسعها واستهلالها لحركة دافعة من الفتح أو التوسع وقع في القرن الثالث عشر ، في الوقت الذى تفكك فيه ملك غانة بعد صراعها مع المرابطين[٣] ، وبعد أن تسرب الإسلام إلى صفوفها على نطاق واسع .

وفي نفس الوقت كانت دول المغرب الإسلامى قد شغلت بشئونها الخاصة وبأحداثها المحلية ، فدولة الموحدين كانت قد دهمها الانحلال والتفكك وانقسمت إلى دويلات صغرى متصارعة من أجل القوة والنفوذ .

---

(١) السعدى : تاريخ السودان ص ٩ .

(٢) Cooley, pp. 24.

(٣) Fage, p. 24.

وقد توفرت لهذه الدولة النامية القوة بامتلاكها ناصية القوة العسكرية وتعرفها على أساليب القتال وتجنيدها جيشاً قائماً من الخيالة والإبالة ثم تبنيها لحركة الجهاد في سبيل الإسلام .

وضح هذا التطور في عهد ملكها سندياتا ، وكان مظهر هذا التطور استطاعة هذا الملك عام ١٢٣٧ م أن يقهر مملكة صوصو القوية ، وأن يصرع صاحبها في ميدان المعركة ثم أن يلتهم ما بقى من شبح ملك غانة القديم[1] ، فانفسح المجال أمام هذه الدولة المتطلعة إلى النفوذ والقوة بعد تغلبها على غانة من ناحية وعلى صوصو من ناحية أخرى .

ومن مظاهر بروز هذه الدولة في سماء الحياة السياسية ، وتطورها اتخاذها حاضرة جديدة .

ويستفاد مما كتبه محمود كعت في كتابه « الفتاش » أن هؤلاء الملوك كانت لهم عاصمة قديمة تسمى جريبة جاوزوها إلى عاصمة جديدة اتخذت إسم « نباني » .

وقد أدت الحفريات التى أجريت في منطقة النيجر في السنوات الأخيرة إلى تأييد ماذكره هذا المؤرخ ، إذ تم الكشف عن موقع هذه المدن عند ملتقى النيجر بفرعه Sankaran[1] .

واستمرت هذه الحركة التوسعية في عهد سنديانا ، ثم بعد وفاته في عهد خليفته منسى ولى[3] (١٢٥٥ — ١٢٧٠) ، فاستولى على مناجم الذهب في ونجارة ، كما استولى على بمبوك وبوندة .

ولم تتوقف الفتوح بعد منسى ولى ، إنما استمرت في عهد خلفائه حتى وصلت الغاية في عهد ملك ملى الشهير منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٢٢) .

فقد استولت جيوشه على ولاته ، ودخلت تنبكت ومنطقة جاو عند النيجر الأوسط .

---

(١) Hogben, pp. 30 - 34.

(٢) Hogben, pp. 30 - 34.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى . (م١٦ — الاسلام فى أفريقية)

وامتدت هذه الدولة في آخر العهد به إلى بلاد التكرور في الغرب ، ثم إلى دندى في الشرق ، بل امتد نفوذها شمالاً إلى ولاتة ، وأروان، وتادمكة في قلب الصحراء[١] ، وأوغل نفوذها جنوباً حتى فوتاجالون .

وقد عدد القلقشندى الأقاليم التى انضوت تحت لواء هذا الملك الواسع وذكر منها : ملى وصوصو وغانا وكوكو وتكرور .

بل يستفاد من رواية القلقشندى أن آمال منسى موسى لم تقف عند حدود البحر بل امتدت إلى ما وراءه ، وكأن هذا السلطان أراد أن يتبع توسعه البرى بتوسع بحرى باكتشاف معالم المحيط الأطلسى ، فأعد حملة مكونة من مائتى سفينة شحنها بالرجال والأزواد وأمرهم ألا يعودوا حتى يبلغوا نهاية البحر ، ولما لم يعودوا جهز حملة أخرى فكان نصيبها الإخفاق[٢] .

إذن استطاع هؤلاء السلاطين أن يبسطوا سلطانهم على سهل السافانا الفسيح من منطقة السنغال في الغرب حتى منطقة شاد في الشرق بعد امتلاكهم أعنة الخيل والإبل .

وقد نجم عن هذا كله تدفق الجزية في مبالغ ضخمة إلى خزانة الدولة . ثم احتكارها لسلع الملح والذهب وغيره من المعادن ، ثم سيطرتها على التجارة العالمية الرابحة المنطلقة من مدن السودان إلى مدن المغرب ، وما صحب هذا من الغنى الفاحش والثراء الجم الذى يلوح من وصف كل من ابن بطوطة[٣] وليو الإفريقى ، ثم إنشاء العلاقات التجارية مع بلاد المغرب ومع مصر .

وما كادت الدولة تبلغ الغاية من التوسع حتى بدت مظاهر الضعف فأغرق الملوك في الترف .

وفقد الملوك المتعاقبون روحهم العسكرية ، فبدأت الأقاليم الخاضعة تستقل الواحدة بعد الأخرى : استقلت جاو وأروان وولاته[٤] .

---

(١) **Fage, p. 24.**

(٢) **Fage, p. 26.**

(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٩٤ .

(٤) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٤ .
القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٧ .

وبدأ الولوف والتكرور يغيرون من الغرب ودولة الكانم من الشرق . واستقلت إمارة سيكون لها شأن عظيم ، وهى إمارة سنغى[١] .

ولا يعنينا من سيرة هذه الدولة إلا أن نبين كيف انفعلت انفعالا إسلامياً وكيف ساهمت في بناء الحضارة العربية وكيف استطاعت أن تحقق من المظاهر الإسلامية ما سبق أن نوهنا عنه .

أول هذه المظاهر اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية . ظهر هذا من اتجاه هؤلاء السلاطين إلى الحج إلى مكة ثم زيارة مصر في الطريق .

وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر قيام الدولة ، إذ أشار القلقشندى إلى خروج منسى ولى بن مارى جاطه[٢] للحج في عهد السلطان بيبرس .

وكان هؤلاء الحجاج يجتازون الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات ، والذى يمتد من هذه المدينة وينتهى عند أهرام مصر .

لكن هذه الصلات ظهرت في صورة واضحة قوية في عهد السلطان منسى موسى[٣] ، الذى يعتبر موكبه من أروع مشاهد مواكب الحاج التى وفدت على مصر في القرن الثامن الهجرى .

إذ بلغت عدة من جاء في ذلك الركب أكثر من عشرة آلاف شخص[٤]. وبرغم مافي هذا العدد من مبالغة إلا أن مجيء ذلك الوفد الضخم أتاح للمصريين فرصة طيبة لمعرفة الكثير من أحوال تلك البلاد .

ويبدو أن هذا الحج كان هدفه إظهار مظاهر البذخ واكساب شخصية منسى موسى من الهيبة والإحترام ما يمكن لملكه من البلاد ، ويبعث رعيته على الطاعة له . وقد مهد لمجيئه إلى مصر وتقربه من سلطانها ، بكتاب أمسك

---

(١) **Fage : Op. cit., p. 26.**

(٢) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) السعدى : تاريخ السودان ص ٧

فيه ناموساً لنفسه ، مع مراعاة قوانين الآداب . وخاطب فيه الناصر محمد بآيات التقدير والإخاء وبعث إليه بهدية مقدارها خمسة آلاف مثقال ذهب .

وفي هذا الكتاب وفي هذه العلاقات ما يدل على روح الأخوة الإسلامية بين مصر عاصمة الإسلام وبين السلطات الإسلامية الناشئة في غرب إفريقية .

وقد راسل ديوان الإنشاء بمصر ملوك تلك الجهات ، بدليل ما يوجد في التعريف وصبح الأعشى من نماذج لمكاتباتهم(١) .

وكان هذا استهلالا لعلاقات ثقافية وتجارية واسعة(٢) ، فقد انتهز هذا السلطان فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل مملكته طرفاً من مناهل الثقافة المصرية .

وتبع هذا رحيل كثيرين من علماء مصر إلى تنبكت ، ورحيل علماء تنبكت إلى مصر . بل إن ابن بطوطة رأى هناك طبيباً مصرياً ، واشتملت حاشية السلطان منسى سليمان على ثلاثين مملوكاً من مماليك مصر .

كما وفد التجار المصريون إلى هذه البلاد ، ورحل تجار التكارنة إلى القاهرة ، بل استقرت طوائف من هؤلاء في مصر تشتغل بالتجارة أو العلم أو التصوف ، وهذا كله من مظاهر الأخوة الإسلامية الحقة .

وكما اتصل سلاطين ملى بمصر اتصلوا بملوك المغرب خصوصاً بالسلطان أبي الحسن على المريني ، وانتهز منسى موسى فرصة استيلائه على تلمسان وبعث إليه بالتهنئة(٣) ، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة فاس .

وتوطد العلاقات الثقافية مع المغرب ليس في حاجة إلى إيضاح ، ويكفى أن عرى هذه الصلات لم تنفصم بحكم وحدة اتباع مذهب مالك(٤) . فقد كان فقهاء هذه البلاد دائمى الإتصال بفقهاء السودان يتبادلون الفتاوى والتواليف والرحلات .

---

(١) حامد عمار : علاقات الدولة المملوكة بالدول الافريقية ص ٥

(٢) Meek, vol. I, p. 62.

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٦

(٤) القلقشندى ج ٧ ص ٢٩٧

بل امتدت هذه العلاقات إلى الأندلس ، يدل على هذا ما يروى من استعانة منسى موسى بأحد أهل الأندلس[١] لبناء القصور والمساجد ، وبذلك شاع الفن العربي الأندلسي في هذه البلاد .

ومن المظاهر الإسلامية فوق الحج وتوطد صلات الأخوة إحاطة سلاطين ملى أنفسهم بالفقهاء والعلماء[٢] خصوصاً في عهد منسى سليمان الذى بنى المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام بها الجمع والجماعات والآذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك[٣] .

وقد اكتملت الحركة الإسلامية في عهدهم بسبب حركات الجهاد المتتابعة من ناحية ورحيل الفقهاء من ناحية أخرى .

حدث هذا كله في القرن الرابع عشر حينما زار ابن بطوطة هذه البلاد ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة عريقة وعلماء من مصر ومراكش ، وطلبة للعلم وحفاظ للقرآن .

وقد زارها ليو الإفريقى في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد الحياة الإسلامية في غاية الإزدهار بفضل الجهود المتصلة التى بذلها هؤلاء الملوك لخدمة الإسلام ، ونشر الثقافة الإسلامية[٤] .

سلطنة سنغى

بدأت دولة صغيرة لا تكاد تختلف في ظروف قيامها عن دولة غانة ، هجرة من بربر لمطة تدفقت على منطقة النيجر في القرن السابع الميلادى واستطاعت أن تبسط نفوذها على الفلاحين من أهل سنغى الذين ينتشرون على ضفة النيجر الأوسط .

ثم بدأت هذه الدولة تنمو نمواً مطرداً في ظل أسرة حاكمة من هؤلاء البربر (أسرة زار أودبا) التى اختلطت دماؤهم بدماء أهل البلاد الأصليين

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى
(٢) Dubois, p. 265.
(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٧
(٤) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى

وقد أفادت من علاقاتها التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر ومن طرق القوافل المارة بتادمكة .

ثم بدأت المرحلة الحاسمة في تاريخ هذه الدولة في منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حين اعتنق ملوكها الإسلام وتشربوا الحضارة العربية وبدأ هذا الدين يتسرب بين صفوف أهلها .

اعتنق شعب سنغى الإسلام في ظروف مشابهة لاعتناق أهل ملى ، اعتنقوه في الحركة الإسلامية الضخمة التى اضطلع بها المرابطون في ذلك الوقت .

وليس ببعيد أن تكون قد تلقت البلاد بعض التأثيرات الإسلامية الضخمة عن طريق هذه العلاقات التجارية التى نشأت بينها وبين المغرب الإسلامى [١].

ولعل انتشار الإسلام على هذا النحو أو إفادتها من التجار هى التى دفعت سنغى إلى التماس حاضرة جديدة . . إذ انتقلت الدولة إلى مدينة جاو على مقربة من طريق القوافل الرئيسية التى تصل المغرب بالسودان .

ولم تستطع هذه الدولة الناشئة أن تقاوم الحركة التوسعية الكبرى التى نمت في عهد منسى موسى سلطان ملى ، فخضعت لدولةملى ودانت لها بالطاعة ، وظلت على هذا الولاء حتى بدأت مظاهر الضعف تدهم ملك ملى مؤذنة بتفككه وانهياره .

وكان استرداد هذه الدولة لاستقلالها مؤذناً باندفاعة توسعية لاتقل عن اندفاعة ملى من قبل .

وقد وضح هذا التطور في عهد ملكها سنى على (١٤٦٤ — ١٤٩٢) ، الذى هيأ لدولته جيشاً قائماً منظماً ، ثم بدأ الزحف فاستولى على مدينة تنبكت وبدأ يبسط نفوذ دولته الناشئة في سهول غرب إفريقية[٢] .

---

(١) Fage, p. 29.

(٢) Fage, p. 27.

غير أن هذه الحركة التوسعية تظهر في صورة قوية واضحة في عهد اسكى محمد ، فقد استكملت الدولة استعدادها العسكرى الموفور ، وأفادت من الخبرات السابقة واتخذت هذه الحركة الجديدة مظهراً إسلامياً واضحاً حين اتجه هذا الفاتح إلى مملكة موسى الزنجية فأعلن الجهاد واستشار أهل العلم والورع [١] .

بدأ بأن طلب إلى ملوك هذه الدولة الدخول في الإسلام أو دفع الجزية فلما أبوا حاربهم في ديارهم ، قتل رجالهم وخرب أرضهم وسبا نساءهم .

ثم انساح فوق السهول لايكاد يعوقه عائق ، فانبسط نفوذه غرباً إلى بلاد الماندنجو والفولاني وشمالاً حتى (موطن) الطوارق ، وامتد نفوذه جنوباً بعد إخضاعه مملكة موسى الوثنية .

وتجاوز مد سنغى الآفاق التى وصل إليها سلاطين ملى ، إذ تسرب نفوذهم إلى شمال نيجريا .

فهوجمت إمارات الحوصة ، كشن (كتسينا) ، وغوبير وكانو ، وزنفرة وزاريا وخضعت كلها سنة ١٥١٣ .

وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الإسلاميةفي هذه الجهات ، فظهرت مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة في هذا الجزء من نيجيريا .

وأشرف النفوذ الإسلامى المنتشر في ركاب سلاطين سنغى على منطقة بحيرة شاد[٢] . لهذا كله نرى السعدى ومحمود كعت التنبكتى وغيرهم يلونون هذا العهد بلون زاه ، ويكاد وصفهم لاسكى محمد—لفضائله وجهاده في سبيل الدين—يرقي به إلى مصاف الأولياء ، فنسبوا إليه الكرامات والخوارق ، ونسجوا حوله الأساطير .

ويحق لهم أن يفعلوا هذا ، فلم تصل دولة من دول غرب إفريقية إلى هذا القدر من سرعة الزحف وامتداد السلطان .

---

(١) السعدى ص ٧٤ — ٧٧

(٢) Meek, vol. I, p. 66.

فقد شمل نفوذ هذه الدولة منطقة السافانا كلها في امتدادها من الشرق إلى الغرب .

ومما أكسب هذه الفتوحات صفة القوة و الدوام أن اسكى محمد وضع نظماً إدارية صالحة مكنته من السيطرة على هذه الرقعة الفسيحة من الأرض .

فقد اتخذ أربعة من نواب الملك عهد إليهم بحكم الولايات مع منحهم السلطان المطلق : حاكم دندى ويشرف على المناطق الممتدة شرقاً حتى بحيرة شاد ، وحاكم بانكو الذى يتولى المنطقة الواقعة بين العاصمة جاو وبين مدينة تنبكت ، ثم حاكم بال ويسيطر على الأقاليم الشمالية الغربية ومواطن الطوارق ، أما الحاكم الرابع فيتولى النطاق الغربي الممتد إلى بلاد التكرور.

وجعل من قوات الجيش القائم المنظم عدته في الغزو والفتح والجهاد ، ضم إليه فرقاً من فرسان البربر ثم فرقاً أخرى من أبالة الطوارق ، وفرقاً من المشاة .

ولم تستطع دولة أخرى أن تبلغ هذا المبلغ من تنظيم الجيوش والتحكم في هذه القوى الهائلة . ولعل هذا القدر من القوة يفسر لنا سر هذا التوسع العظيم الذى لم نألفه من قبل[١] .

ثم ينقضى عهد الفاتحين المجاهدين المؤسسين ويأتي جيل من الخلفاء الذين ينقصهم هذا الإخلاص وهذه الرغبة في الجهاد بل يجنحون إلى الراحة والإغراق في الترف والنعيم .

والفترة التى تلت عزل أسكى محمد ثم وفاته لم تخل من بعض السلاطين الذين توفرت لهم بعض مواهب هذا الرجل الفذ إلا أنها حفلت بالمنازعات على العرش ، صراع متصل بين الأخوة ، وأعمال تتسم بالعنف ، ومؤامرات واغتيالات وخوف متصل من المنافسين على العرش[٢] ، فجاءت النهاية على يد جيوش المغرب الأقصى التى تقدمت لفتح السودان سنة ١٥٩٠[٣] .

(١) **Dubois, pp. 131 - 134.**

(٢) **Ibid, p. 136.**

(٣) **Fage, p. 30.**

وقد اتصل النزاع بين سلاطين سنغى وسلاطين مراكش على مناجم الملح الغنية الواقعة عند تغزه .

وتطور هذا النزاع إلى عدوان متبادل واشتباك مسلح ، ورأى المنصور سلطان مراكش الذى كان قد أبطره انتصاره على البرتغاليين عند القصر الكبير أن يحسم هذا النزاع بفتح بلاد سنغى مستغلاً ما أصابها من ضعف وتفرق .

فأعد حملة مؤلفة من نحو أربعة آلاف من خيرة جند مراكش بقيادة جودر باشا ، وعبروا الصحراء وهزموا قوات سنغى قرب عاصمتهم جاو ، ثم قضوا على آخر رمق في مقاومة سلاطين سنغى .

وإذا كانت دولة سنغى قد شابهت دولة ملى من حيث تطورها العام ، فإنها قد شابهتها في اتخاذها مظهراً إسلامياً واضحاً ، بل فاقتها في هذه الناحية . وهذا تطور طبيعى فقد امتد سلطان سنغى إلى القرن السادس عشر ، واستطاع الإسلام بعد نحو أكثر من ثلاثة قرون أن يقطع خطوات واسعة في سبيل النمو والانتشار .

وقد سعى ملوك سنغى كما سعى ملوك ملى من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة تحقيقاً لروح الأخوة الإسلامية .

فقد خرج أسكى محمد إلى الحج ومر بمصر سنة ٨٩٩ هـ في موكب حافل لايقل عن موكب منسى موسى في روعته وأبهته وفخامته .

وأغدق أكثر مما أغدق سلفه ، فقد روى السعدى مثلاً أنه تصدق في الحرمين بمائة ألف مثقال من الذهب واشترى بساتين في المدينة المنورة حبسها على أهل تكرور .

واجتمع في موسم الحج بزعماء المسلمين وتأثر بما رآه في مصر من نظم في الحكم راقيةومن ثقافة عربية مزدهرة ، فاتصل بالإمام السيوطى وغيره من علماء العصر وتلقى تقليداً من الخليفة العباسى .

وعاد إلى بلده متأثراً بما رآه من روح إسلامية خالصة ، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب ، ويقال أنه استهدى في تنظيماته الإدارية بالنظم التى شهدها في مصر[١] .

وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء . وروى صاحب تاريخ السودان وصاحب تاريخ الفتاش تفاصيل كثيرة عن تقدير هذا السلطان للعلم وأهله ، فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بألا يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج ، وأن لا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم ، وهو لايفتأ يسأل عن سنة الله ورسوله[٢] .

ويشير صاحب الفتاش إلى بعض الآراء الإصلاحية التى تنسب إلى هذا السلطان فقال : « وأبطل البدع والمنكر وسفك الدماء وأقام الدين أتم قيام وجدد الدين وأقام العقائد[٣] » وأولى جامعة تنبكت المزيد من عنايته فتفوقت في عهده ووصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل .

وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه ، فاسكى اسحق يسير في نفس الطريق من تشجيع العلماء وإكرامهم والأخذ بيدهم[٤] ، وهذا اسكى داود يتخذ خزائن الكتب ، « وله نساخ ينسخون كتبه ، وربما[٥] هادى العلماء ، وقيل أنه حافظ للقرآن ، قرأ الرسالة فأتمها وله شيخ يعلمها ويأتيه الشيخ بعد الزوال ويقرئه إلى الظهر[٦] ».

فكأن دولة سنغى شهدت تمكن الإسلام من أهل غرب أفريقية وازدهارها الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود .

٤ ـ انتشار الاسلام صوب الشرق :

واضح إذن أن تيار الحضارة العربية كان يتدفق من بلاد المغرب ويتجمع في منطقة السنغال والبلاد الواقعة بين منحنى النيجر في الشرق ونهر السنغال

(١) السعدى ص ٧٢
(٢) الفتاش ص ٥٩
(٣) المرجع السابق ص ٥٩
(٤) المرجع السابق ص ٨٧
(٥) المرجع السابق ص ٩٤
(٦) المرجع السابق ص ٩٤

في الغرب ، ويتركز على الخصوص في المراكز الإسلامية التى ظهرت في هذا الجزء من القارة .

من هذه المراكز كان الإسلام يتقدم صوب الشرق في حركات ملحة مطردة : إما على يد التجار الذين يوسعون أفق نشاطهم صوب الشرق أو في ركاب الفاتحين من سلاطين ملى وسنغى .

امارات الحوصة

وقد جاوز الإسلام منحنى النيجر متجهاً صوب الشرق إلى المنطقة الواقعة شمال نيجريا الحالية إلى حيث شعب الحوصة .

وهذا الشعب يمثل هجرة من هجرات البربر الذين كانوا لايكفون عن المضى صوب الجنوب كلما أتيحت لهم الفرص .

ذلك أن غارات الهلاليين منذ القرن الحادى عشر فصاعداً دفعت فريقاً من الملثمين إلى الهجرة إلى واحة أير ، كما دفعوا إلى الهجرة أيضاً بعض قبائل من البربر من غير الملثمين وقد عاش الفريقان جنباً لجنب فترة طويلة ، وتزاوجا ثم اندمجا[١] ، ومن هذا الاندماج نشأت شعوب الحوصة .

ولم تعد واحة أير تكفى هذا العدد من السكان ، فبدأ الحوصة يبحثون عن مهاجر جديدة ، فانطلقوا صوب الجنوب إلى الشمال نيجريا ، وكونوا لأنفسهم إمارات صغيرة بلغ عددها سبعا ، أقدمها إمارة بيرم ، وإمارة غوبير وكانو وكاتسينا وزاريا وزنفرة[٢] .

حتى جاء القرن الرابع عشر ، فإذا بالحوصة لايزالون على وثنيتهم . يستفاد هذا من رواية ابن بطوطة الذى زار هذه البلاد سنة ١٣٥٣ م ، وعجب لأن أهلها لا زالوا على الوثنية .

---

(١) Hogben, p. 69.

(٢) Fage, p. 54.

ثم بدأ الإسلام يتدفق إلى هذه الإمارات من الغرب ، يدل على هذا ما يرويه تاريخ مدينة كانو من أن فريقاً من الفقهاء يزيدون على الأربعين رجلاً قد وفدوا على هذه المدينة فعلموا ملكها الإسلام ، وأسسوا مسجداً ، وأقاموا فيها يعلمون الإسلام ، ويطبقون الشريعة الإسلامية .

وليس ببعيد أن يكون سلاطين ملى قد بسطوا على الأقل نفوذهم الروحى في هذه البلاد .

ويبدو أن ثمة تأثيرات إسلامية أخرى دخلت البلاد من الشرق ، ويبدو أن فقهاء المغرب قد شاركوا في هذه الجهود السلمية لنشر الإسلام بين شعب الحوصة ، مثل تلك الجهود التى بذلها فقيه توات الشهير محمد بن عبد القادر المغيلى [١] .

وقام أهل برنو بجهود مماثلة في الفترة الواقعة بين سنتى ١٤٣٨ و ١٤٥٠ [٢] ومضى الإسلام قدماً في البلاد ، حتى كان آخر القرن الخامس عشر حين بدأت كانو وكتسينا تبرزان في ميدان الثقافة الإسلامية .

ورحل علماء من تنبكت وجنى إلى هذه المدن وأقاموا بها يعلمون فقه مالك .

ومضت الحركة الإسلامية حينما استطاع اسكى محمد سلطان سنغى أن يبسط نفوذه على هذه الإمارات في القرن السادس عشر .

وبدأت مدن الحوصة تزداد تألقاً وسعة في النفوذ عن ذى قبل ، خصوصاً بعد سقوط سنغى واحتلال المراكشيين لبعض بلادهم .

وتعرض علماء تنبكت وجنى للكثير من المظالم والمحن ، فاضطروا إلى الهجرة صوب الشرق التماساً لأوطان أكثر أمنا وطمأنينة .

---

(١) Meek, vol. I, p. 89.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة حوصة

سلطنة كانم وبرنو

ولم يقف الإسلام عند حدود نيجيريا بل عاود انطلاقه صوب الشرق، فنفذ إلى منطقة بحيرة شاد حيث قامت سلطنات إسلامية هي سلطنة كانم وبرنو ، تشبه من وجوه كثيرة السلطنات التي حفل بها تاريخ ذلك العصر في السودان الغربي : مثل ملي وسنغي[١] .

وقد اتخذ تاريخها نفس المجرى ، وتعرضت لنفس الظروف ، ومرت بنفس الأدوار ، ومثلت دورها المرسوم في ميدان الحياة الإسلامية بنفس العمق والإصالة التي شهدناها في السلطنات السابقة .

تشابه حتى في البداية الأولى التي شغلت الفترة الواقعة بين سنتي ٨٠٠ و ١٢٥٠ م ، هجرات من البربر تتدفق إلى شرق بحيرة شاد وغربها ، كما تدفقت هجرات مماثلة إلى جميع أرجاء غرب إفريقية .

في هذه الفترة هاجر الزغاوة ، وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية ، وانتشروا في مستهل هذه الفترة في مساحة رحبة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة شاد[٢] .

ويبدو أن الزغاوة ظلوا على الوثنية حتى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، فالبكرى الذى كتب عن هذه البلاد في هذه الفترة يذكر أنهم لا زالوا على الوثنية .

حتى إذا مضى القرن الحادى عشر وبدأ القرن الثاني عشر تعرض الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق .. هجرة من التبو والتدا .

هذه الهجرة لم تكن شاملة بالصورة التي نتوقعها ، إنما كانت على هيئة أرستوقراطية حاكمة تملك مصادر القوة والنفوذ ، وتستطيع عن طريقها أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها[٣] .

---

(١) Fage, p. 54.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة حوصة .

(٣) Plamer, p. 5.

هذه الأرستقراطية الحاكمة أنجبت أول أسرة مالكة تسيطر على المنطقة الواقعة شرق البحيرة ، وتؤسس سلطنة كانم التى كان لها شأن في تاريخ السودان.

ومما يلفت النظر أن ملوك هذه الأسرة يطلقون على أنفسهم اسم بنى سيف ويدعون نسباً حميرياً يصلهم بسيف بن ذى يزن .

وهذا النسب يؤكد لنا صحة إنحدارهم من أصل ملثمى ، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجة الجنوب ينتسبون إلى الحميريين .

وكان طبيعياً أن يحتفظ بنو سيف بهذه القرابة الوثيقة ، وأن يحافظوا على هذا النسب التقليدى[١] .

ويبدو أن ظهور هذه السلطنة في ظل هذه الأسرة الحاكمة كان مرتبطاً بدخول الإسلام والحضارة العربية إلى أرض كانم . والذين عرضوا لتاريخ هذه السلطنة يختلفون في الوسيلة التى دخل بها الإسلام هذه النواحى ، فبالمر مثلاً[٢] يرى أن هجرة أموية دخلت هذه البلاد قادمة من مصر ، ويشير في مواضع أخرى إلى أن فريقاً من فقهاء المالكية فروا من مصر في عهد الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله ، والتجأوا إلى بلاد كانم وعملوا على نشر الإسلام بين أهلها .

ونعتقد أن الإسلام دخل في ركاب هذه الأسرة الحاكمة ، وأن إدخال هذا الدين هو الذى مكن لها من السيطرة على البلاد والوثوب إلى كراسى الحكم .

ورواياتهم المحلية تؤيد هذا بقولها أن الهادى العثماني جد[٣] الأسرة الحاكمة هو الذى أدخل الإسلام إلى البلاد ، وإن كان صاحب كتاب الإستبصار يرد انتشار الإسلام في البلاد على نطاق واسع إلى سنة ٥٥٠ هـ (سنة ١١٠٦ م). وبعض الروايات الأخرى ترجع إدخال الإسلام إلى حكم الملك أومى[٤] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٩

(٢) Palmer, p. 6.

(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

(٤) دائرة المعارف الاسلامية : مادة كانم Palmer, p. 14.

إذن دخل الإسلام في ظل الأسرة الحاكمة في آخر القرن الحادى عشر ثم ثبتت أقدامه وتوطد في القرن الثاني عشر . وهذا لا ينفى تدفق تيارات إسلامية أخرى من مصر أو المغرب[١] .

وكان اعتناق الأسرة للإسلام ثم انتشار الإسلام على نطاق واسع بين أهل البلاد إيذاناً بانطلاقهم نحو العلاقات الدولية والتوسع والغنى والشهرة .

ومن الغريب أن هذه الشعوب تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام فتظهر على مسرح الأحداث ، ويدخل تاريخها في عهد من النور والوضوح[٢] .

وقد انطلقت هذه الأسرة تتوسع في أواخر القرن الثالث عشر في عهد ملكها دونامة الأول وسليمان وخليفته ، فانتشر نفوذها حتى بلغ حدود مصر وطرابلس ونيجيريا في الغرب[٣] .

واتسعت تجارتها ، وتدفقت الثروات إلى خزائنها . وفي نفس الوقت تقريباً رسخت الحركة العلمية في البلاد ، وتوطدت اتصالاتها الثقافية بمصر والمغرب وغرب إفريقية .

ثم جدت ظروف أدت إلى انتقال السلطان إلى فرع آخر من هذه السلالة ثم انتقال مركز النفوذ من شرق البحيرة حيث بلاد كانم ، إلى غربها حيث بلاد برنو .

فقامت سلطنة برنو في حجر نفس الأسرة . ذلك أن قبائل البلالة[٤] من أهل البلاد الأصليين ثارت على استبداد الأسرة الحاكمة ، وأعلنت الحرب واقتحمت عاصمتهم جيمى[٥] ، وطردت الملوك من بلاد كانم ففرروا إلى غرب البحيرة على النحو الذى ذكرناه ، وتمت هذه النقلة في عهد السلطان عمر بن إدريس (١٣٩٤ — ١٣٩٨) .

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

(٢) Barth, vol. II, p. 372.

(٣) Barth, vol. II, p. 372.

(٤) Hogben : op. cit., p. 37.

(٥) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

ثم عاودت سلطنة برنو ظهورها في سماء الحياة الإسلامية ، فقد استطاعت في عهد ملكها ماى على أن تخضع البلالة الثائرين وأن تبسط نفوذها على شرق البحيرة وأن تجمع كانم وبرنو في سلطنة موحدة(١) .

ثم بلغت أوج توسعها في القرن السادس عشر ، فقد تخلصت من متاعب البلالة ، ومكنت لها الأحوال الدولية المعاصرة من مواصلة سياسة التوسع؛ فالمغرب شهدت تسرب النفوذ العثماني إلى الجزائر وتونس ، وانشغل المغاربة بمدافعة الخطر الأسباني والبرتغالى .

ثم سقطت مملكة سنغى ، ووقعت هذه البلاد نهباً للفوضى والإضطراب في ظل الحكم المراكشي .

وقد نمت مراكز برنو الثقافية مزدهرة في ظل الأمن والطمأنينة ، والرحالة ليو الإفريقى زار هذه البلاد في ذلك العصر ، ورأى مبلغ ما نعمت به من شهرة واسعة ، ومن أدلة هذه الشهرة ظهور هذه السلطنة على الخرائط البرتغالية المعاصرة(٢) .

وامتد نفوذ برنو غرباً في عهد ماى على ، فناضل بقايا نفوذ سنغى وبسط نفوذه على إمارات الحوصة .

وبلغت هذه السلطنة أوج قوتها في عهد أدريس ألوما الذى استطاع بعد حصوله على الأسلحة النارية أن يقهر الشعوب الوثنية في الجنوب وأن يبسط نفوذه شمالاً حتى واحة اير (أهير) ومناطق التدا والتبو(٣) ، وهو يشبه من وجوه كثيرة اسكى محمد سلطان سنغى الشهير .

وقد مرت سلطنة برنو بفترات من الضعف والإنحلال في القرن السابع عشر ، ولكنها بقيت حتى القرن التاسع عشر ، وساعدها على البقاء اضطراب أحوال العالم الإسلامى ، وتفرق شعوب غرب السودان والمغرب .

---

(١) **Meek, vol. p. 80.**

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة برنو

(٣) **Hogben, p. 40.**

وقد قامت سلطنة كانم وبرنو في الحياة الإسلامية بنفس الدور الذى قامت به سلطنة ملى وسنغى من حيث اتصالها بالبيئات الإسلامية المجاورة والدول الإسلامية المعاصرة ، تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية ، وأفادت من الخبرات الثقافية والعلمية .

فقد سعى هؤلاء السلاطين إلى مواسم الحج ، ومروا في طريقهم بمصر شأنهم شأن السلطنات الأخرى ، فالسلطان دوناما سلطان كانم خرج حاجاً في القرن الحادى عشر ، ومر بمصر في طريق السفر والعودة، ويقال أنه ترك بمصر نحواً من ثلاثمائة من العبيد(١) .

ولابد أن أمثال هذه الزيارات قد تكررت ، ولابد أن صلة كانم قد توطدت بمصر ، فقد كانت أقرب هذه السلطنات من الطرق التى تسلك الصحراء الغربية في طريقها إلى واحات مصر .

وأبلغ دليل على اتصال العلاقات الودية بين كانم وبين مصر ، أن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر ، وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية .

واشتغلت هذه الطائفة بتصريف المحاصيل السودانية ، وبتجارة الرقيق ومارسوا تجارة البهار من اليمن والهند والصين .

وقد اتخذت هذه الطائفة مدينة قوص مركزاً لها،فأصبحت سوقاً تجارياً حافلاً بمنتجات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند .

وكونوا لهم نقابة قوية هيمنت على التجارة واحتكرتها ، وأقاموا على نقابتهم رئيساً معترفاً به من قبل الحكومة .

وقد نمت ثروة بعضهم نمواً عظيماً بحيث أصبحوا يقومون في عالم التجارة بما تقوم به البنوك الحديثة ، ويقرضون السلاطين في مصر والبلاد المجاورة(٢) .

---

(١) Palmer : Bornu, Sahara and Sudan, p. 91.

(٢) حامد عمار ص ٥٨

ولم يرحل الكانميون إلى مصر تجاراً إنما رحلوا إليها طلاب علم ، التحقوا بالأزهر ، وأنشأوا في مصر مدرسة لتعليم مذهب مالك[١] بالفسطاط؛ وعادوا إلى بلادهم يتابعون نشاطهم الثقافي .

وقد اتصلوا بالمراكز الإسلامية الأخرى . اتصلوا بتونس[٢] في عهد بنى حفص اتصالات تجارية وثقافية مختلفة ، واتصلوا بكانو وتنبكت وجنى وجاو ، وعملوا على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم بتقريب العلماء والفقهاء والإغداق عليهم ، وأنشأوا المساجد وأوقفوا الأوقاف على طلبة العلم[٣] .

كذلك عملوا على نشر الإسلام والجهاد في سبيله ، واستخدموا الأسلحة النارية في السيطرة على القبائل الوثنية الواقعة إلى الجنوب منهم ، وأدخلوا الكثير منهم في الإسلام .

وإليهم يرجع الفضل في بسط لواء الإسلام في منطقة بحيرة شاد كلها ، وأسهموا في نشر الإسلام في بلاد الحوصة .

٥ ـ الحضارة العربية فى غرب أفريقية فى العصور الوسطى

١ ـ نظم الحكم :

هذا الدور من تاريخ الإسلام في غرب إفريقية يمتاز بطابع واضح كل الوضوح ، فقد تم فيه الإمتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية الوافدة وبين التقاليد الزنجية المحلية ، وتمت الملاءمة بين هذين العنصرين بعد انتهاء مرحلة الإنتقال السابقة ، وظهرت تقاليد إسلامية إفريقية ، إسلامية الشكل والطابع ، إفريقية الروح .

تتضح هذه الحقيقة من دراسة ما رواه الرحالة والجغرافيون الذين زاروا هذا الجزء من إفريقية مثل ابن بطوطة ، أو ما ذكره القلقشندى الذى عرض لنماذج من الحياة ولصور من نظم الحكم اقتبسها من الكتاب الذين سبقوه ، أو من أهل تلك البلاد الذين عاصروه .

---

(١) أسست هذه المدرسة بين سنتى (١٢٤٢ ـ ١٢٥٣) م .
دائرة المعارف الاسلامية مادة كانم ؛ القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

(٢) Hogben : op. cit. p. 36.

(٣) Palmer, p. 48.

وتتضح هذه الصور أيضاً من إشارات كثيرة وردت في ما كتبه مؤرخو السودان مثل السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان أو محمود كعت صاحب كتاب الفتاش ، وصاحب تذكرة النسيان أو تاريخ كانو .

هذه الروايات والأخبار المتعلقة بنظم الحكم وبعض أوجه الحياة الإجتماعية المعاصرة ، تشعر بأننا في مجتمع إفريقى صميم ، اكتسب الثوب الإسلامى أو الصبغة الإسلامية .

وهذه طبيعة الإسلام في أى بلد حل فيه ، يبقى من التقاليد ومن النظم ومن مظاهر الحياة مالا يتعارض مع تقاليد الإسلام أو روحه .

فالقلقشندى يتحدث عن تقاليد البلاط في سلطنة ملى ،فيعطينا صورة إفريقية خالصة .

ثم أعطانا ابن بطوطة وصفاً لبلاط نفس هذه السلطنة لا ينقلك من هذا الجو الإفريقى الخالص .

ولم ينفرد سلاطين ملى بهذا اللون الفريد من الحياة ، إنما كانت ظاهرة شاعت في هذه البيئة الزنجية كلها ، فنلمح من رواية السعدى عن سلاطين سنغى وحياتهم ومواكبهم وعاداتهم واحتفالاتهم واحترام الناس لهم ما يوحى بأن ما رواه ابن بطوطة عن أهل ملى شاع عند أهل سنغى وعند غيرهم من شعوب غرب إفريقية[١] .

نلحظ نفس هذا النمط من التقاليد الإسلامية المختلطة بالتقاليد الإفريقية فيما يروى عن حياة الأمراء في إمارات الحوصة السبع في شمال نيجيريا .

ومن بلاد كانم وبرنو كتب القلقشندى مسجلاً صورة من هذه التقاليد المحلية غير المألوفة .

ومع هذا كله تحس من حياة الملوك والرعية أن هناك ثمة مظاهر إسلامية صرفة أو عربية خالصة .

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨٣

كذلك نلمح في هذا المجتمع الطابع المعروف عند المتبعين لمذهب الإمام مالك من الترمت والشدة في الدين وتمسك الفقهاء بالتقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان ، وتولى الوظائف ، ثم تغلغلهم في صميم الحياة وتمتعهم بالزعامة الدينية الشعبية ، نفس الصورة التى نلحظها في المغرب الإسلامى .

ثم تقدير السلاطين لهؤلاء الفقهاء واحترامهم ، يزورونهم في بيوتهم ويستفتونهم ويأتمرون بأمرهم ، وجرت العادة على أن من يلجأ للمسجد أو دار الفقيه أو الخطيب أمن العقاب ، ولم يجرؤ أحد على التعرض له بسوء[1] .

هذه الروح المالكية تظهر من التشدد في الدين إلى أبعد الحدود . فقد لاحظ ابن بطوطة هذا الطابع في سلطنة ملى حينما استحسن منهم قلة الظلم « فهم أبعد الناس عنه والسلطان لا يسامح أحداً في شيء منه ، وعدم تعرضه لمال من يموت في بلادهم ، ومواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات . وضربهم أولادهم عليها ، وازدحام المساجد بالمصلين حتى إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعاً[2] ، وفي حرصهم الشديد على حفظ القرآن وتعليم الدين » .

هذا الطابع من الحياة الدينية المطبوعة بطابع مذهب مالك نلحظها في تقاليد سلاطين سنغى ، وفي حرصهم على التقاليد وتمسكهم بالدين إلى أبعد الحدود .

وقد شاعت هذه التقاليد في غرب إفريقية كلها حيث يسود مذهب مالك ، وعلق القلقشندى على هذه الظاهرة عند أهل كانم بقوله « يتمذهبون بمذهب مالك الإمام ذووا اختصار في اللباس ، يابسون في الدين[3] » .

ولا نكاد نجد أسرة حاكمة في هذا العصر إلا وقد اصطنعت لنفسها نسباً عربياً ، فسلاطين ملى يدعون الإنتساب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن ابن على ، وانتسب سلاطين كانم وبرنو إلى حمير ، واتخذ سلاطين سنغى مثل

---

(١) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١

هذا النسب العربي ، هذا كله ليكتسبوا صبغة إسلامية كاملة وليفوزوا برضا الرعية وتقدير المعاصرين ، وليفسحوا لأنفسهم مجالاً في الحياة الإسلامية الدولية .

ولم يعدم الأمر أن يقتبسوا من التقاليد الشائعة في الحياة الإسلامية المعاصرة ، فهم في لباسهم يتشبهون بأهل المغرب « يرتدون عمائم بحنك مثل المغرب وملبسهم شبيه بلبس المغاربة : جباب ودراريع بلا تفريج وهم في ركوبهم كأنهم العرب[1] » .

وتأثر كل من منسى موسى واسكى محمد بأساليب الحياة في مصر المملوكية ، فاقتبسوا منها ما وافق طبيعة بلادهم ، فسلطان ملى مثلاً يتخذ حاشية من ثلاثين مملوكاً من الترك اشتراهم من مصر ، وكانت وثائقهم ومكاتباتهم الرسمية تكتب كلها باللغة العربية[2] .

هذا عن بعض ألوان من نظم الحكم والحياة الإجتماعية .

٢ ــ الثقافة العربية :

أما عن الثقافة الإسلامية ، فإنه يمكننا أن نقول في اطمئنان أن هذه الثقافة كان طابعها عربياً صرفاً لم تداخله أية تأثيرات أخرى ، لسبب واضح هو أن هذه الشعوب الزنجية التي اعتنقت الإسلام وتشربت ثقافته العربية لم تكن لها تقاليد ثقافية مثل تقاليد الإيرانيين أو الإغريق التي أثرت في الثقافة العربية في بيئات الشرق الأدني ، حملت هذه الثقافة إلى بلادهم وتقبلوها كما هي .

هذه الثقافة ذات طابع مغربي بحت واضح كل الوضوح ، وهذا طبيعى لأن الإسلام دخل هذه البلاد من المغرب ، فحمل معه إلى غرب إفريقية تقاليد المغرب وثقافته . وقد تدفق الإسلام من بلاد المغرب إلى غرب إفريقية على نطاق واسع منذ القرن الخامس الهجرى فصاعداً .

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٨

(٢) مراسلات سلاطين برنو مع مصر وكذلك وثائق برنو التى نشرها Palmer : Bornu, Sahara and Sudan.

وكانت ثقافته منذ القرن الخامس الهجرى قد غلبت عليها التقاليد المالكية الدينية ، وكانت كلها تقريباً تدور حول فقه مالك والعلوم المساعدة الأخرى التى تخدم هذا الفقه وتساعد على فهم هذه الثقافة المالكية التى وضحت في القيروان ، وانتقلت منها إلى المغرب الأقصى والأندلس · حملها البربر معهم إلى غرب إفريقية ، فغلبت على الثقافة فيها ، وقل أن تجد في السودان الغربي مذهباً إلا مذهب مالك وفقها إلا فقه مالك .

الفقهاء مالكيون في حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدريسهم ، والشعوب مالكية تتأثر بهؤلاء الفقهاء وتستهدى بهم . وتراجم العلماء والفقهاء التى وردت في كتاب نيل الإبتهاج أو في تاريخ السعدى أو الفتاش تعطينا هذه الصورة المالكية الصرفة .

وكادت مدارس الثقافة الإسلامية في غرب أفريقية أن تكون مدارس مغربية بحتة ، فكأننا في فاس أو أودغشت أو مراكش أو القيروان . نفس الأسلوب ونفس الحياة ، نفس المثل ونفس الوسائل ، حتى طريقة الكتابة نفسها تأثرت بالطابع المغربي ، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي .

ونفس المناهج والكتب المتداولة هى المناهج والكتب المالكية المغربية : كتب عياض ، وكتب سحنون ، وشروح ابن القاسم وخليل ، وكتب المغيلى والونشريشى ، وموطأ مالك ، والمدونة والخزرجية ، وتحفة الحكام والعباد[١]

كل هذه الكتب كانت تدرس في مدارس غرب إفريقية في جنى وتنبكت وكانو وكتسينا وبرنو ، وفي أى مكان تسرب إليه الإسلام أو فقه مالك .

حتى التأثيرات الأندلسية دخلت إلى مدارس المغرب من قبل في ظل المرابطين والموحدين ، وعلماء الأندلس الذين بارحوا هذه البلاد بعد سقوطها في يد الفرنجة رحلوا إلى غرب أفريقية ، وأقام كثير منهم في تنبكت[٢] ، كما أقاموا في فاس ومراكش وتونس والقيروان .

---

(١) السعدى صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦

(٢) Dubois : op. cit., p. 253.

ونماذج التأليف التى ظهرت ونشرت نماذج مغربية الصورة . وعنوان ذلك الفقيه المشهور أحمد بابا التنبكتى الذى ولد بوهران سنة ١٥٥٦ م من أصل صنهاجى ثم رحل إلى تنبكت ، وأقام فيها وشهد الاحتلال المراكشى ، وقد ظهرت مواهبه وارتفعت مكانته العلمية ، وانتشر ذكره حتى أدرك مراكش وبجاية . وقد حمل إلى مراكش أسيراً ولكنه عاد إلى تنبكت مرة أخرى حيث توفي بها سنة ١٦٢٧ ، وهو رجل واسع التأليف جم المعرفة ألف في كل الثقافة المألوفة في عصره ، وقد ذيل لابن فرحون في كتابه نيل الابتهاج ، بدأ من حيث انتهى ابن فرحون ، وعرض لتراجم من أغفلهم ، وأتم هذا الكتاب سنة ١٥٩٧ . وهو يعطينا صورة طريفة لتاريخ الحركة الفكرية ، ليس في مدينة تنبكت فقط ، بل في السودان الغربي كله .

وكذلك المؤرخ السعدى من رجال القرن السابع عشر، فقد بلغ مبلغ الرجال سنة ١٦٣٥ ، في الوقت الذى خضع فيه السودان الغربي للنفوذ المراكشى ، وتجول في بلاد النيجر ، وأقام بتنبكت وجنى ورحل للمغرب[١] وهو في أسلوبه وطريقة تناوله للموضوعات يشعر بأنه مغربي الثقافة مع كونه سوداني الموطن .

وكذلك شأن محمود كعت التنبكتى صاحب كتاب الفتاش ، فقد كان فقيهاً من فقهاء تنبكت صحب أسكى محمد الكبير[٢] ، وألف كتابه بنفس الأسلوب المغربي المألوف .

كانت الثقافة في غرب أفريقية ثقافة مغربية في أرض أفريقية ولا يعنى هذا أن مدارس السودان الغربي لم تتأثر بإنتاج المدارس الإسلامية الأخرى. تأثرت على الخصوص بمدارس مصر المملوكية . ورحل أهل السودان إلى مصر وتعلموا فيها ، ورحل بعضهم إلى الشام والحجاز ، ووصلت تآليف المصريين إلى السودان الغربي .

وقد عرفنا كيف ابتاع منسى موسى الكتب وحملها معه ، كما أن مؤلفات السيوطي وغيره من علماء مصر شاعت في هذه البلاد . لكن هذا كله لا ينتقص

(١) Dubois : op. cit., p. 352.

(٢) Dubois : op. cit., p. 352.

من الحقيقة التي وضحناها ، فكان الوافدون إلى الأزهر يتعلمون فقه المالكية ، وأنشأوا بمصر مدارس مالكية ، وتأثرهم بمصر لايختلف عن تأثير المغاربة أنفسهم .

وتأثر الثقافة الإسلامية في غرب أفريقية بثقافة بلاد المغرب لايعنى أن هذه الثقافة أقل غزارة وعمقاً ، فنماذج العلماء والفقهاء الذين تعرضت لهم كتب التراجم لايقلون في مستواهم واستعدادهم وتحصيلهم عن إخوانهم المغاربة : تلقوا نفس التعليم وقرأوا نفس الكتب ، وعاشوا نفس الحياة[1] ، و عرفوا بالإخلاص الشديد والحرص على التعليم واقتنوا المكتبات العظيمة ووقفوها على المتعلمين .

وكانت مدينة تنبكت نفسها سوقاً عظيمة للكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد .

وفي رواية السعدى أن فقيهاً يدعى محمد بن محمود بن أبي بكر اقتنى نفائس الكتب العربية العزيزة ، أو ربما يأتي لبابه طالب يطلب كتباً فيعطيها له من غير معرفة .

ووصل علماء غرب إفريقية في علمهم إلى مستوى لايقل عن مستوى المدارس الإسلامية الأخرى ؛ إن لم يكن يزيد عنها في بعض النواحى. فقد روى السعدى أن فقيهاً اسمه عبد الرحمن التميمي جاء من الحجاز بصحبة السلطان موسى صاحب ملى حين عاد من الحج ، فأقام بتنبكت زمناً ، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها[2] إلى فاس .

كذلك رحل كثيرون من أهل هذه البلاد ومن علمائها إلى المغرب ودرسوا في مدارسه ، ووصل بعضهم إلى مصر وبرز في ميدان الثقافة .

وقد أورد ابن حجر ترجمة لفقيه تكرورى اسمه صبح بن عبد الله ، اشتراه سيده عقب مجيئه إلى مصر من بلاده ، ولشغفه بالعلم أقبل مع أبناء

---

(١) السعدى صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦
(٢) نفس المرجع والصفحات
نفس المرجع ص ٥١ ، ٦٢

هذا السيد على دروس النجيب وشمس الدين وغيرهما من علماء ذلك العصر ، ثم اشتغل بالصناعة حتى ادخر خمسمائة درهماً اشترى بها حريته ، ثم برع في العلم واشتغل بعلم الحديث وتدريسه في دمشق[١] .

ولا ندرى بالضبط مدى انتشار الثقافة العربية بين عامة الناس في ذلك العصر، وإن كنا نلاحظ أن مكاتب تحفيظ القرآن قد انتشرت في كل مكان دخله الإسلام .

ونلمح في روايات الرحالة والمؤرخين حرص أهل البلاد جميعهم على حفظ القرآن والتزامهم للشدة في ذلك ، فقد روى ابن بطوطة « أن أهل ملى يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظون[٢] » .

ولكنهم رغم هذا لايتخذون اللغة العربية في حياتهم الخاصة ، إنما كانوا يستخدمون لغاتهم الأصلية ، ثم يصطنعون العربية في تعبيرهم الثقافي ، وفي صلواتهم ، فقد حضر ابن بطوطة صلاة الجمعة بأحد مساجد ملى ، فرأى رجلاً بيده رمح يقف[٣] ، ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب .

حدث هذا في القرن الرابع عشر ، ولازال يحدث حتى اليوم[٤] .

٣ ــ مراكز الثقافة :

هذا عن قيام الثقافة العربية في غرب إفريقية ، أما عن المراكز التى استقرت بها هذه الثقافة، فإن أهمها مدينة تنبكت نفسها ، التى أصبحت مكانتها من هذه الثقافة لاتقل عن مكانة القيروان في أفريقيه أو فاس في المغرب الأقصى أو قرطبة في الأندلس أو القاهرة في مصر .

فقد ارتبط تاريخ الثقافة في هذا العالم الأفريقى بتاريخ هذه المدينة نفسها . بدأت يوم ولدت المدينة ، واشتد ساعدها باتساع أفق المدينة وتطورها .

---

(١) حامد عمار ص ٥٩
(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣
(٤) أثناء رحلة عام ١٩٥٦

ثم خضعت لما تعرضت له هذه العاصمة الروحية من مظالم الاحتلال المراكشي ، ولما أعقبه من اضطرابات وتطورات ، حتى دخلت في النفوذ الفرنسي آخر الأمر .

كانت بحق مراكز الحياة الثقافية ، وقلب الحركة الفكرية النابض ، اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون : المغاربة والأندلسيون والمصريون والحجازيون ووفد إليها الناس من كافة بقاع غرب إفريقية من السنغال والنيجر ، ومن إمارات الحوصة وبرنو وكانم والسودان .

كل هذه الطوائف كانت تحج إلى هذه المدينة ، فتقيم بها زمناً ثم ترحل أو تقيم بها إقامة دائمة ، وقل أن تجد كتاباً لم يؤلف في تنبكت ، أو فقيهاً لم يتعلم فيها أو يقيم بها .

أقام بهذه المدينة واشتغل بالتدريس في جامعها الشهير الذى يشبه من وجوه كثيرة الجامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية ، حشد كبير من العلماء والفقهاء .

وبرزت منهم طائفة وصلوا إلى مرتبة الإمامة أشار إليهم السعدى في كتابه تاريخ السودان : منهم الحاج جد القاضى عبد الرحمن بن أبي بكر الذى تولى القضاء في عهد أسكى محمد ، وأبو عبد الله أندغمحمد بن عثمان ، وأبو جعفر عمر بن محمد أقيت الذى ترك أكثر من سبعمائة مجلد ، ومخلوف بن على بن صالح[1] .

كان هؤلاء العلماء يشتغلون بالتدريس في جامعة تنبكت الشهيرة ، وكانوا في الحقيقة بمثابة طبقة خاصة من سكان هذه المدينة ، لهم ظروفهم الخاصة وحياتهم الخاصة ، وكانوا يتوارثون حرفة العلم ويحتكرونها في أسرهم .

وكان الطلاب يفدون إلى هذه المدينة بعد أن يكونوا قد حفظوا اجزاء من القرآن في مدارسهم المحلية ، فإذا أتموا هذه الدراسة الابتدائية شدوا الرحال إلى تنبكت وأقاموا بها حتى يتم تعليمهم هؤلاء الطلاب ، وكانت حياتهم

---

(١) السعدى ص ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩

ميسرة ، يستضيفهم سراة المدينة وتجارها ووجهاؤها . كما أن مسجد سنكري كانت له أوقاف تنفق على الطلبة المنقطعين للعلم(١) .

ولم تكن الدراسة في عهد هذه الجامعة محدودة بزمن إنما كانت رهناً بفراغ الطالب من قراءة عدد معلوم من كتب الفقه والحديث والمنطق والنحو وعلوم اللغة .

وقد حدثنا السعدى أن بعض الطلبة ينفقون أكثر من ثلاث سنوات في قراءة موطأ الإمام مالك وحده .

كذلك أشار السعدى إلى نماذج من الكتب التى كانت تدرس في جامعة تنبكت منها : الشفاء للقاضى عياص ، والصحيحين وعلم الحديث ، والسير ، والتواريخ ، وأيام الناس ، والمدونة ، والرسالة ، ومختصر ، خليل والألفية والموطأ ، ورجز المغيلى في المنطق ، والخزرجية في العروض ، وشرح الشريف السبتى ، وتحفة الحكام لابن عاصم ، وكتاب المعيار (٢) للونشريشى .

فإذا أتم الطالب هذه الدراسة المتنوعة حصل على الإجازة المطلوبة ورحل من المدينة إلى حيث يشتغل بالأقراء أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء .

وكانت مدينة تنبكت مركزاً لإشعاع فكرى بعيد المدى في بلاد السودان فكانت تحمل إليها الكتب من مختلف جهات العالم الإسلامى ثم تنسخ وتباع في أسواق المدينة ، وكانت تلقى إقبالاً منقطع النظير من الطلبة والمشتغلين بالعلم والسلاطين والأمراء .

وكان علماء المدينة يقبلون في شغف على إنشاء المكتبات الخاصة وبعضهم نيفت كتبه على الألفين(٣) ، كما اقتنى بعض السلاطين مثل هذه المكتبات مثل ماروى عن اسكى داود ، سلطان سنغى المعروف(٤) .

والأمر الذى كان يزيد الحركة الفكرية توقداً في تنبكت أنها لم تكن محلية الطابع ، وإنما كانت عالمية اتصلت بالبيئات العالمية المعاصرة .

---

(١) **Dubois, p. 328.**

(٢) السعدى : تاريخ السودان صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥

(٣) **Dubois, p. 337.**

(٤) الفتاش ص ٩٤

اتصلت بالأزهر في العصر المملوكي ، ولا غرابة في هذا فقد أصبحت مصر موئل التفكير الإسلامى في الشرق والغرب بعد أن أصبحت مستقر الخلافة العباسية ، وتألقت ثقافتها الإسلامية تألقاً عظيماً .

ونلمح فيما كتبه السعدى هذه العلاقات التى توطدت بين الأزهر وتنبكت إلى أبعد الحدود . فهذا محمد بن أحمد التازختى رحل إلى الشرق واتصل بعلماء مصر مثل شيخ الإسلام زكريا والبرهانين والقلقشندى ، وابن أبي شريف ، وعبد الحق السنباطى ، وحضر دروس الأخوين اللقانيين ثم رحل للحجاز[١] ، وعاد إلى تنبكت يذيع ما حصله من علم ومعرفة[٢] .

وهنالك أمثلة كثيرة تؤيد هذه العلاقة الوثيقة . وممن ذاعت شهرته في السودان على وجه الخصوص الإمام السيوطى ، اتصل به طلاب العلم من تنبكت ، وكانت له صلات معروفة بسلطان سنغى اسكى محمد ، بل أشار السعدى إلى علماء من مصر جاءوا تنبكت[٣] .

ولسنا بحاجة إلى أن نشير إلى الصلة الوثيقة التى قامت بين تنبكت وبين جامعات المغرب الإسلامى ، فمدينة تنبكت مدينة في ثقافتها ونشأتها وفي تراثها كله إلى المغرب ، وكانت على اتصال وثيق غير منقطع بمراكش وتونس والجزائر وغدامس وطرابلس . كان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكت ، كما كان علماء تنبكت كثيراً مايقيمون بفاس أومراكش يعلمون أو يتعلمون[٤]

ومن المراكز الأخرى التى تلى تنبكت في الأهمية أو تدانيها مدينة جنى . وهى مدينة أسست قبل تنبكت بوقت بعيد ، غير أنها بدأت تدخل في دائرة النفوذ الإسلامى منذ القرن الخامس الهجرى ، أسلم أميرها سنة ١٠٥٠ م وبنى مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام في مكة[٥] .

---

(١) السعدى : ص ١ ، ١٢ ، ٥٧ — **Dubois, pp. 134-135.**
(٢) السعدى ص ٣٧
(٣) السعدى ص ٢١ (م ١٨ — الاسلام فى أفريقية)
(٤) السعدى ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٦١
(٥) **Dubois, p. 175.**

ويبدو أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل أميرها في الإسلام ، إذ يستفاد من رواية السعدى أن أميرها عندما تهيأ للدخول في الإسلام أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة ، فجمع منهم أربعة آلاف ونيف ، وأسلم على يدهم[1] . وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع بلاد المغرب وحوض السنغال ، فقد كانت سوقاً عظيماً لتجارة الملح والذهب وجنى أهلها من هذه التجارة أرباحاً طائلة .

وارتبطت تجارياً بتنبكت وبالواحات الواقعة على طريق القوافل . ثم خضعت لدولة سنغى كما خضعت تنبكت ، فنعمت بالطمأنينة والأمن ، وتضاعف نشاطها التجارى كما رسخت قدمها في الثقافة الإسلامية عن ذى قبل . وكان إسكى محمد أول من عين القضاة بهذه المدينة للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية .

ثم تتابعت وثبتها من بعد ذلك . فنجد السعدى في تاريخه يتحدث بالتفصيل عمن أقام بها من العلماء والقضاة ورجال الدين[2] .

ولكن رغم رسوخ قدمها في الثقافة الإسلامية على هذا النحو ، لم تستطع أن تبلغ ما بلغته تنبكت بسبب قرب هذه المدينة من الطرق المؤدية إلى بلاد المغرب وصلاتها المستمرة بمراكز الثقافة فيما وراء الصحراء .

ثم امتدت مراكز الثقافة إلى الشرق في المنطقة الواقعة شمال نيجيرها في أمارات الحوصة ، بعد أن دخلت هذه الإمارات في الإسلام وخضعت لنفوذ سنغى ، فظهرت مدن كانو وكتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادى فصاعداً .

وقد سبق أن أشرنا إلى رحيل بعض علماء تنبكت إلى مدينة كانو سنة ١٤٨٥ ، واتصال الرحلة إليها بعد ذلك ، كما نشطت كتسينا كذلك[3] :

---

(١) السعدى ص ١١ — ١٢

(٢) السعدى ص ١١ — ٢٠

(٣) Meek, vol. I, p. 66.

وقد رأينا الجهود التى قام بها الإمام المغيلى في هذه المدينة حين أقام بها زمناً يعلم الناس الفقه ويقضى بينهم ، والرحالة بارت[١] في حديثه عن إمارات الحوصة يشير إلى علاقة نشأت بين جلال الدين السيوطى وبير أمير كاتسينا . ولا نستبعد نمو مثل هذه العلاقة ، فقد اتصل رجالات غرب إفريقية بهذا الإمام العظيم منذ رجوع إسكى محمد من الحج بعد زيارته الشهيرة لمصر ، بل هنالك ما يدل على أن السيوطى[٢] رحل إلى شمال نيجيريا وأقام في هذه المدينة زمناً يعلم الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ هـ .

لكن مدينتى كانو وكتسينا تضاعفت شهرتهما العلمية بعد الأحداث التى أصابت مدينة تنبكت منذ القرن السادس عشر فصاعداً . ولا زالت مدينة كانو إلى اليوم ربما أهم مراكز الثقافة الإسلامية في غرب إفريقية وبها مدرسة للعلوم العربية ومدرسة للقضاء الشرعى .

ولم تقف الثقافة العربية عند حدود نيجيريا ، بل نفذت إلى منطقة بحيرة شاد ، وتوطدت في بلاد كانم وبرنو .

وقد كشفت الوثائق التى نشرها بالمر وترجمها إلى اللغة الإنجليزية عن علاقات هذه البلاد الثقافية بمصر ، وعن رحيل بعض العلماء إلى الجامع الأزهر وحجهم إلى مكة وزيارتهم بغداد ثم عودتهم إلى بلادهم واشتغالهم بتعليم الحديث والتفسير ، ومن هؤلاء عمر بن عثمان[٣] .

وتشير هذه الوثائق إلى تشجيع السلاطين للحركة العلمية وبنائهم المساجد .

وتكشف هذه الوثائق أيضاً عن تمتع رجال العلم في البلاد بمكانة ممتازة ، فقد درج السلاطين على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراماً لا تمس بسوء طيلة حياته[٤] .

---

(١) Barth : vol. II, p. 74, Arberry Islam to day, p. 36.

(٢) آدم عبد الله الألورى : الاسلام فى نيجريا ص ١٠

(٣) Palmer : op. cit., p. 33.

(٤) Ibid : p. 44.

وامتدت هذه الهبات إلى المهاجرين من علماء المسلمين من الشمال أو الشرق ، وقد ظلت أسرتهم محتفظة بها مئات السنين[١] ، وأشارت بعض هذه الوثائق من ناحية أخرى إلى علماء ارتفع شأنهم مثل القاضى محمد بن الحاج أحمد ، والإمام طاهر بن إمام الحاج ، وعبد القادر بن الحاج وغيرهم ؛ وتفوقت مراكز الثقافة في برنو في القرن الثاني عشر على وجه الخصوص[٢] .

هذه المراكز الثقافية كانت تتأثر إلى حد بعيد بسياسة الدول الإسلامية التى قامت في السودان الغربي . فكانت الدولة كلما بسطت ظل الطمأنينة وسادها الأمن والرخاء ، ومدت يد العون إلى المشتغلين بالعلم ، كلما عملت على الأخذ بيد هذه الثقافة .

هذا القول يصدق على مدينة تنبكت بصفة خاصة ، فقد ظفرت من عناية منسى موسى[٣] ما دفعها في طريق الظهور ، فهو الذى بنى بها دار السلطنة ، وبنى صومعة الجامع الكبير .

وتدفق إليها رجال العلم لينعموا بهذه الطمأنينة ، ثم تأثرت تنبكت وثقافتها الإسلامية بما ذاقته في عهد سلطان سنغى سن على الذى غزا هذه المدينة سنة ٨٧٣[٤] هـ .

وفر منها العلماء بالآلاف خوفاً من بطشه وانتقامه . ثم عاودت هذه المدينة حياة الهدوء والطمأنينة والإنتاج في عهد إسكى محمد ، ولعل هذا يفسر المديح الذى كاله السعدى لهذا السلطان كيلاً ، ونعمت بهذه العناية في عهد إسكى داود اسحق[٥] .

ثم ذاقت من المراكشيين أكثر مما ذاقت من سن على من قبل ، وهذا أمر يؤسف له حقاً . فقد كان أخلق بهذا الفتح أن يزيد من عمق الصلة بين

---

(١) Idem.

(٢) Islam to day, p. 137.

(٣) السعدى ص ٧ ، ٩

(٤) السعدى ص ٧٥ ، ٧٧

(٥) الفتاش ص ٩٤ ، ١١٣

المغرب وغرب إفريقية ، وأن يدفع الثقافة الإسلامية في طريقها نحو التفوق والإزدهار(١) .

وكانت أوضاع المراكز الثقافية الأخرى تتأثر بالأحوال السياسية كما تأثرت بها تنبكت فقد امتدت النهضة إلى جنى في ظل نفوذ سنغى ، كما تفوقت كانو وكاتسينا بسبب اضمحلال تنبكت من ناحية ، وتشجيع أمراء الحوصة من ناحية أخرى . وقد رأينا كيف عمل سلاطين برنو على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم .

٦ ـ الحضارة العربية فى غرب افريقيا فى القرن التاسع عشر

والعالم الإسلامى كما انتفض في القرن التاسع عشر وقامت في أكثر أقطاره محاولات مخلصة لإخراج المسلمين من رقدتهم وإيقاظ وعيهم ، وبعث النشاط فيهم ، وتجديد روح الحضارة العربية التى تألقت طوال العصور الوسطى ، إما عن طريق الدعوات السلمية أو الحركات التجديدية ، كذلك امتدت هذه اليقظة إلى غرب إفريقية . وشهدت محاولات من هذا القبيل للأخذ بيد المسلمين ، وإصلاح عقائدهم وأمورهم . وماكان لهذه البلاد أن تبقى بعيداً عما اعتمل في الأقطار الإسلامية الأخرى . فقد كانت صلاتها بالعالم الإسلامى صلات وثيقة ، تفكر وتتجاوب كما يتجاوب .

وكانت حركات الإصلاح التى شهدها غرب إفريقية في القرن التاسع عشر حركات سلفية كلها ، تدعو إلى العودة بالإسلام إلى ماضيه المشرق ، وتكوين مجتمع إسلامى صرف في نظمه وتقاليده وعاداته . هذه الحركات يمكن أن نعددها على النحو الآتي :

١ ـ الدعوة الوهابية ممثلة في حركة عثمان بن فودى في نيجيريا .

٢ ـ تجدد نشاط الطرق الصوفية بعد أن امتدت إليها يد البعث والإصلاح ، ممثلة في نشاط السنوسية والقادرية والتيجانية .

---

(١) Dubois, p. 351.

٣ – حركات مهدوية تمثلها حركة أحمد ولوبو وولده أحمدو شيخو.

قامت المحاولة الأولى في شمال نيجيريا بين إمارات الحوصة قام بها رجل من أفذاذ أهل البلاد في هذا العصر هو عثمان بن محمد فودى .

ومن حق هذا المصلح أن نترجم له وأن نعرف بمبادئه وأن نعرض لجهاده وللمكانة التى أحرزها بين مصلحى العلم الإسلامى ومفكريه .

ينتسب هذا المصلح إلى شعوب الفولاني التى رأيناها تخرج من أوطانها في منطقة السنغال ، وتتسرب تسرباً بطيئاً نحو الشرق منسابة في سهول السودان .

وهو ينحدر من أسرة من هؤلاء كان وطنها الأول في منطقة فوتاتورو ، ثم انطلقت في ركاب المهاجرين حتى دخلت سهول نيجيريا ، وأقامت في بلاد الحوصة .

في هذه البيئة ولد عثمان بن محمد فودى في قرية طفل بإمارة غوبير سنة ١١٦٩ ﻫ ، وكان بيته بيت علم وفتوى ، أسلم أجداده منذ دهر طويل وتفقه أبوه في الدين واشتغل بالعلم[١] ، واشتغل به بيته كله حتى زوجته وأولاده .

شب في هذه البيئة المتدينة فأولع بالعبادة والذكر ، ونشأ نشأة دينية خالصة ، ثم بدأ يخطو خطواته الأولى في طريق العلم والثقافة ، تلقى دروسه الأولى على يد أبيه محمد فودى وجدته رقية وأمه حواء[٢] . ثم أقبل على علوم العربية يستزيد منها . أخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمداء وسمع الفقه من محمد تبو بن عبد الله . ثم ارتحل إلى الشيخ جبريل بن عمر ولازمه ثم عاد إلى بلاده ، وسمع التفسير في زنفر ثم درس الصحيحين[٣] .

ولما بلغ مبلغ الشباب وأوتي حظه من النضوج العقلى والفكرى هاله حال المسلمين في بلاد الحوصة ، فهم يخالطون الوثنيين دون تحرج ، ويقلدهم

---

(١) آدم عبد الله الألورى ص ٣٥

(٢) نساء الطوارق والفولا يتمتعن بنصيب وافر من الحرية ويتعلمن كما يتعلم الرجال سواء بسواء

(٣) آدم عبد الله الألورى ص ٣٥

العامة ويتشبهون بهم[١] . وظهر الدين تشوبه البدعة وتجلله الخرافة ويقتله الجهل .

ثم رحل إلى بلاد الحجاز وذهب إلى مكة . وكانت الوهابية قد انتشرت في الحجاز ، ذاعت مبادؤها في الإصلاح وحققت قدراً كبيراً من النجاح بالتحالف الذى تم بينها وبين آل سعود . وقد خالط عثمان دعاة الوهابيين واستمع إليهم ، وتشرب مبادئهم وتحمس لها ، فأيقظت في نفسه الرغبة الملحة في أن يحارب البدع في بلاده كما حاربها الوهابيون في بلادهم . وأن يعلنها ثورة على أولى الأمر كما كانت الوهابية ثورة على السلطان والمفاسد . وقويت في نفسه الرغبة في إيقاظ مسلمى إفريقية من خمولهم ورقدتهم وحياتهم الدينية المقفرة[٢] .

حبه للوهابية واتخاذها ديناً وعقيدة يتبين من الخطة التى انتهجها في الإصلاح ، والمبادىء التى أعلنها .

هذه المبادىء تظهر واضحة جلية في مؤلفاته التى بلغت إثنا عشر مؤلفاً ، وفي مؤلفات أخيه عبد الله وإبنه محمد بل . كلاهما ألف في العقائد ، وفصل وشرح . كما تظهر هذه المبادىء مما رواه المعاصرون أو من في حكمهم عن أفعاله وخطواته ومنهجه — خصوصاً صاحب كتاب تذكرة النسيان — فقد أفرد ذيلا في كتابه للتاريخ للسلطان محمد بل بن عثمان ولبعض خلفائه .

وقد بدأ رسالته كما بدأها الوهابيون أول الأمر ، دعوة إلى الدين بالحسنى والموعظة ، فأخذ يدعو إلى الإسلام ويحض الناس على اعتناق مبادئه . وبدأت حلقات الطلاب الملتفين حوله تتسع بالتدريج . ثم حض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتاب على يديه خلق كثير ، وتزايد عدد أنصاره ومريديه . ثم بدأ بالإتصال بالأمراء المعاصرين يريد أن يحضهم على إصلاح الأحوال ومحاربة البدع والإتحاد لنشر الإسلام بين من لم يسلم من الوثنيين .

---

(١) Hogben, p. 73.

(٢) أرنولد ص ٣٦٠

وتتضح من تعاليمه الرغبة السلفية الملحة في إعادة المجتمع الإسلامى إلى بساطته الأولى ونقائه الأول أيام الراشدين[١] .

كذلك نفى عن نفسه في قوة وصرامة عمله من أجل ملك أو أى عرض من أعراض الدنيا .

وكان يذكر دائماً أن العناية قد اختارته لإصلاح الدين وإعادة حكم الأمة والجماعة[٢] . فكان يشاور أصحابه في أعماله كلها ، والتزم خلفاؤه نظام البيعة الإسلامية .

وصاحب تذكرة النسيان[٣] في حديثه عن بيعة محمد بل بن عثمان بن فودى روى أن خطيب المسجد قرأ على الناس وثيقة الشيخ في استخلاف ولده ، وأتاه أهل الآفاق وبايعوه .

وكانت جيوش الفتح والجهاد قبل الزحف تقرأ آيات الجهاد وسورة براءة لتقوى الروح المعنوية[٤] . وظهر طابعهم في التقشف والزهد منذ اللحظة الأولى، فقد كان محمد بل الذى ولى السلطنة بعد أبيه يأكل من كسب يده ، ويأبي أن يقتات من أموال المسلمين[٥] وكان عثمان وخلفاؤه لايكفون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحطيم دنان الخمر ، وكسر آلات الطرب ، ذهب أحد هؤلاء السلاطين إلى حد قتل ضارب الدف[٦] .

وبعد أن كثر اتباعه وكثرت شهرته انتقل إلى المرحلة التالية من دعوته ، وهى وعظ الأمراء وإرشادهم ، ولعله كان يريد أن يحقق ما حققه ابن عبد الوهاب من قبل ، وأن يتم تحالف بينه وبين أحد أمراء الحوصة كما تم التحالف بين الوهابية وآل سعود .

---

(١) Arberry, p. 138.
(٢) Barth : vol. II, p. 80.
(٣) تذكرة النسيان ص ١٨٩
(٤) تذكرة النسيان ص ١٩٢
(٥) تذكرة النسيان ص ١٩٢
(٦) تذكرة النسيان ص ٢٠١

فاتجه إلى أمير غوبير وبين له الحق والباطل ، وشرح له الإسلام الصحيح وطلب إليه أن يعاونه في إحياء الدين وإقامة العدل . ويبدو أن هذا الأمير استجاب أول الأمر ، فعهد إليه بالتقوى والإرشاد في مجلسه ، يفسر القرآن ويروى الحديث ، ويشرح آراءه الإصلاحية ، ويجاور العلماء ويناظرهم ويرد عليهم بالحجة ، فسعى العلماء الحاقدون إلى الوقيعة بينه وبين الأمير ، واتهموه أنه إنما اتصل بالأمير رياء ومنافقة وطلباً للرئاسة ، وحباً في عرض الدنيا[١] .

فاتجه إلى إمارة أخرى هى إمارتي زنفر وكب ، ينشر دعوته ومبادئه ، فأسلم على يديه عدد كبير من الوثنيين ، وزاد الناس له اتباعاً ، ورأى الأمراء فيه خطراً ملحاً يريد أن ينتقص من سيادتهم ، وأن يحد من نزواتهم ، ويؤلب عليهم رعيتهم فأمروه بالخروج من بلادهم ، وهددوه بإيذائه وإيذاء أعوانه والقضاء على دعوته .

فلما لم يستطع أن يحقق هدفه ، وأن يفوز بمعاونة أمير من أمراء الحوصة ، خرج في ٢١ فبراير سنة ١٨٠٦[٢] مهاجراً ومعه طائفة من أنصاره المخلصين إلى أطراف الصحراء ، فإذا بأمراء الحوصة يتعقبونه أينما ذهب ، يقطعون الطريق الموصل إليه ، وينهبون أمواله ويتهيأون لحربه .

فلم يجد أتباعه بداً من أن يبايعوه على الجهاد أو الموت وطاعة الله ورسوله وبايعوه بإمرة المؤمنين . واستعدوا للحرب واستجاب له أنصاره في كل أنحاء نيجريا .

وجدت دعوته استجابة قوية سريعة بين عشائر الفولاني المنتشرين في البلاد ، إذ رأوا في انتصاره إعلاء لكلمتهم ، وارتفاعاً لشأنهم ومجداً لجنسهم فاتحدوا خلفه ، بعد أن كانوا قبائل مبعثرة تحيا حياة رعوية ، وقدموا إلى مهجره ينضمون لجيشه ويؤيدون دعوته[٣] .

---

(١) آدم عبد الله الألورى ص ٣٦

(٢) Meek, vol. p. 78.

(٣)

هذا التأييد الذى ظفر به عثمان بن فودى من أبناء جنسه يرى فيه هوجبين Hogben حركة قومية لقبائل الفولاني موجهة ضد أمير غوبير الذى أراد طردهم والقضاء عليهم ، وأن الوثنيين منهم (في زعمه) عادوا إلى حياتهم العادية بعد انتهاء الجهاد ، على حين تقاسم أصحابه المناصب والنفوذ .

وهذا القول لايستقيم مع ما رأيناه من بداية دعوة عثمان . فقد رأيناها محاولة مخلصة للإصلاح ، مجردة من شبهة الجنس أو الرغبة في الملك ، وأنه اضطر حين أعوزه الجند وحق الجهاد أن يستعين ببنى جنسه في هذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كنا لاننكر أيضاً أن الحركة كانت إلى حد ما قومية ودينية إصلاحية في نفس الوقت .

ولما تزعم ملك غوبير المعارضين له وسار لحربه ، أعلن الجهاد رسمياً سنة ١٨٠٦ وابتدأ دور جديد في حركته الإصلاحية هو دور الفتح والجهاد، فبدأ بمدينة كانو ، هاجمها وهزم أميرها هزيمة ساحقة(٣) وولى أحداً من الفقهاء من أتباعه أميراً عليها . ثم هاجم إمارة زاريا ،وتم له فتحها سنة ١٨٠٧ ، واستولى على منطقة سكت(٤) ، واتخذ هذه المدينة حاضرة لدعوته . وقد أعيد بناؤها في عهد السلطان محمد بل سنة ١٨١١ ، واستولى على إمارة زنفر وغوبير وكب .

وكانت الحماسة توحد بين صفوف أنصاره ، والرغبة الملحة في رفع لواء الدين تدفعهم إلى طلب الشهادة ، فاستطاع سنة ١٨١٠ أن يخضع إمارات الحوصة كلها لنفوذه ، بل أراد أن يمد رواق حركته الإصلاحية نحو بلاد برنو . وفي سنة ١٨٠٨ قسم الدولة بين إبنه محمد بل وأخيه عبد الله ، ولى ابنه على المنطقة الشرقية وأخاه على القسم الغربي، وقنع هو بالزعامة الزوحية متخذاً مدينة سكت مركزه الروحى(٥) .

---

(١) أرنولد ص ٣٦٠

(٢) Fage, p. 35. (م ١٩ — الاسلام فى أفريقية)

(٣) تذكرة النسيان ص ١٨٥

(٤) Hogben, p. 113.

(٥) Fage, p. 35.

وحركته الإصلاحية هذه كان شأنها شأن الوهابية، لقيت تشجيعاً وتعضيداً من المخلصين الراغبين في الإصلاح ، كما لقيت معارضة ومحاربة من المحافظين الرجعيين .

فممن عارض هذه الدعوة محمد أمين الكانمى[١] صاحب برنو، واتهم الشيخ عثمان بأنه يسعى لعرض الدنيا في الوقت الذى سعى فيه هذا الكانمى لعرض الدنيا حين تولى سلطنة برنو فيما بعد .

ولكن هذه الرغبة المخلصة صادفت إعجاباً واستجابة في نيجريا وفي خارج نيجريا . وممن أعجبهم منهجه في الإصلاح سلطان المغرب .

ولما توفي الشيخ عثمان سنة ١٨١٧ بويع إبنه محمد بل أميراً للمؤمنين وبقيت الإدارة مزدوجة في عهده : القسم الشرقي يدفع الجزية لسكت والقسم الغربي يدفعها لعبد الله بن فودى . ثم توفي محمد بل سنة ١٨٣٧ ، والرحالة كلبرتون الذى زار هذه البلاد في عهد هذا السلطان يتحدث عن الاستقرار والرواج والرخاء ، ولا تزال هذه السلطنة باقية حتى اليوم[٢] .

وقد ترك ظهور هذه الحركة الإصلاحية أثراً عظيماً في أحوال المسلمين في نيجريا ، وفي غرب إفريقية كله .

فلم يعتمد الفولانيون في نشر الإسلام على الجهاد وحده ، إنما قاموا بجهود مشكورة لنشر الإسلام بالطرق السلمية ، فالرحالة **Lander** رأى في إحدى جزر النيجر المعلمين الفولانيين ، أرسلهم أمير نوب لتعليم الوثنيين مبادئ الإسلام[٣] .

كذلك عمل السلاطين أنفسهم على دفع الحركة الإسلامية إلى الأمام[٤] ، إذ بفضلهم انتشر الإسلام في جنوب نيجريا ، وبهذه البلاد اليوم ملايين

---

(١) Fage, p. 35.

(٢) تذكرة النسيان ص ١٨٩

(٣) Meek, vol. II, p. 12.

(٤) تذكرة النسيان ص ٣٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

من المسلمين دخلوا في الدين على نطاق واسع بفضل هذه الحركة الإصلاحية العظمى .

وكانت هذه الحركة إعلاء للثقافة العربية في غرب إفريقية ، فلم تكن دعوة في الدين مبنية على صوفية إنما مبنية على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة ؛ فإمامهم عثمان بن فودى نفسه ألف نحو عشرين كتاباً[١] ؛ هى :

أصول الولاية — إحياء السنة — بيان البدع — ترغيب العباد — التصوف — تمييز المسلمين — الجهاد — دالية المديح — سوق الصادقين — شفاء الغليل — علوم المعاملة — عمدة العلماء — عمدة البيان — العقل الأول — كف الطالبين — المهدى المنتظر — المسائل المهمة — نصائح الأمة — نور الألباب — الهجرة.

وكان أخوه عبد الله بن فودى يبارى العلماء في مقابلته لصحيح البخارى[٢] وعرف من مؤلفاته ثمانية عشر كتاباً : ألفية الأصول — بحر المحيط في النحو — تزيين الورقات — تخميس العشريات — تفسير ضياء التأويل — تفسير كفاية الضعفاء — الحصن الرصين في الصرف — دواء الوسواس — سبيل النجاة — ضوء المصلى — ضياء السياسة — ضياء الحكام — كتاب النبات — مصالح الإنسان — مفتاح التفسير — مفتاح الأصول — نيل المرام — نظم النقابة[٣] .

ولم يكن إبنه السلطان محمد بل أقل منهما شأناً في هذا الميدان ، فقد خمس في غزواته همزية البوصيرى ، وقصيدة بانت سعاد ، والبردية للبوصيرى . وروى صاحب تذكرة النسيان[٤] أنه كان كثير الاشتغال بالتأليف وكلما ألف تأليفاً أخرجه إلى الناس فيقرأه لهم ثم يشتغل بتأليف آخر . وقد انتقلت زعامة الحركة الفكرية من مدينة تنبكت وجنى إلى مدن كانو وشمال نيجريا .

ثم شهدت غرب إفريقية محاولات أخرى للأخذ بيد المجتمع الإسلامى والعمل في عزم وإصرار على نشر التقاليد الإسلامية .

---

(١) الألورى ص ٤١
(٢) تذكرة النسيان ص ١٩١
(٣) الألورى ص ٤١
(٤) ص ١٩٦

وكما انبعثت حركة عثمان بن فودى في أوساط الفولاني النازلين في إمارات الحوصة ، كذلك قامت حركة أخرى في فرع آخر من هذا الشعب الذى انتشر في بلاد غرب إفريقية على نطاق واسع .

وقد رأينا أن طائفة من الفولاني هاجرت إلى منطقة ما سنة بين السنغال والنيجر وخالطوا شعب البمبارة وعاشوا في كنفه ، وظلت غالبيتهم على الوثنية .

في هذا الوسط الوثنى الخالص — إلا من بصيص من التأثيرات الإسلامية — نشأ فتى فولاني إسمه أحمد واوبو في أسرة مسلمة متمسكة بالتقاليد الإسلامية ، وما كاد يبلغ سن الشباب حتى دفع به أهله إلى مدينة جنى[١] التى كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في حوض النيجر ، حيث تعلم التفسير والفقه وتفقه في الدين . وعاش في هذه المدينة زمناً وغادرها بعد أن اكتملت ثقافته ، وفي ذهنه فكرة واضحة لبعث القوى الإسلامية ومحاربة الوثنية ، والقضاء على البدع وتحرير عشيرته من أهل ما سنه الفولانيين ومن أوهامهم ووثنيتهم .

ثم ظهر عثمان بن فودى في شمال نيجريا يدعو إلى الإسلام ، ويمهد الأذهان لإعلان الجهاد على النحو الذى رأيناه .

وقد اجتذبت هذه الدعوة الإصلاحية الفولانية أحمد ولوبو واستجابت لها رغبته الخالصة في الإصلاح وسخطه الشديد على الضعف والتخاذل الذى ساد المجتمع الإسلامى المعاصر ، وشارك في الجهاد في بلاد الحوصة حتى إذا ما انتهى الجهاد وحقق آمال المصلحين أراد أن يمضى إلى وطنه — ماسنه — وأن يصلح من شئونه كما أصلح عثمان من شئون إمارات الحوصة ، ولكنه اتخذ له منهجاً يختلف عن منهج عثمان .

كان عثمان صاحب رأى في الإصلاح حمله إلى مقعد الأمانة في المجتمع ، ولكن أحمد ولوبو اختط لنفسه طريقاً آخر ، فقد ادعى المهدية[٢] وإنه

(١) Dubois, p. 184.

(٢) Dubois, p. 154.

مبعوث العناية لإنقاذ المجتمع الإسلامى في هذا الجزء من إفريقية ، ثم مجاهدة الوثنية بكل ما يملك من قوة .

فادعى الانتساب إلى البيت النبوى الكريم(١) وأشاع تنبؤات تبشر بظهور المهدى وتهئ له الأذهان وتذكر صفته ونسبه وإسمه ، فساق على لسان السيوطى الإمام أحاديث دارت بينه وبين أسكى محمد الكبير يتنبأ فيها بظهور هذا المهدى بعد نحو أربعة قرون ، ثم سأل الشيخ السيوطى هل يخرج من صلبه من يقيم الدين ويصلح أمره . فقال له الشيخ « لا ولكن يأتي صالح عالم جليل تابع السنة إسمه أحمد يظهر في بعض جزائر ما سنة ، ولكن من قبل علماء سنقر (سنكرى)، وهو الذى يرثك في الخلافة والعدالة والصلاح والجود والنفي والزهد ، ويكون كثير التبسم دائم التحرك في جلوسه ويسبقك بكونه متبحراً في العلوم، وأنت لاتعلم إلا أحكام الصلاة والزكاة والاعتقادات. وهو آخر الخلفاء المذكورين» . ثم سأل أسكى الشيخ هل هذا الخليفة يجد الدين فيجدده أو يجده خامداً فيوقده . فقال له الشيخ بل يجد الدين خامداً فيكون كشرارة جمر وضعت في يابس الحشيش فينصره الله على جميع الكفار والمخالفين حتى تعم بركته الآفاق و الأقطار ،فمن رآه وتبعه كان كمن تبع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خالفه فكأنما خالف النبي صلى الله عليه وسلم. فتوسط الأدلاء في زمانه لكنهم لايزالون على الجهاد إلى فنائهم(٢) .

وقد انتشرت دعوته في ما سنة وصادفت قبولاً عظيماً ، ووجد فيها الفولانيون فرصة لتوحيد صفوفهم وارتفاع شأنهم كما ارتفع شأن إخوانهم في شمال نيجريا .

ثم تجاوز تفكيره حدود وطنه وتطلع إلى الوطن الإسلامى الكبير فيما وراء الصحراء الكبرى . كما تطلع محمد أحمد المهدى إلى هذه الآفاق فيما بعد .

فوجه أحمد ولوبو الكتب إلى المسلمين في إفريقية كلها ، إلى سلطان مراكش وإلى مسلمى الجزائر وتونس ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية

---

(١) Fage, p. 146.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٤

بأنه الإمام الثاني عشر ، وأنه المهدى الذى بعث لإنقاذ الدين والجهاد في سبيل الله ، ثم أعلن الجهاد سنة ١٨١٣ فهزم البمبارة الوثنيين(١) .

ثم دخل مدينة تنبكت سنة ١٨٢٧ ، وأنقذها من يد الرماة المراكشيين ، ثم دخل مدينة جنى وطهرها من البدع والمنكرات ، واتخذ له حاضرة على مقربة منها سماها (حمد الله) ، ونشأت إمارة إسلامية عظيمة الشأن في منطقة ماسنة . وقد توفي أحمدو هذا سنة ١٨٤٤(٢) .

وخلفه إبنه أحمدو شيخو ، ولم تعمر دولته طويلاً فقد توفي سنة ١٨٥٢ ، وأصبحت ماسنة هدفاً لحركة إصلاحية أخرى تنبعث من بلاد التكرور ، ورغم أن هذه الحركة كانت قصيرة العمر إلا أنها أتمت إسلام الفرع المغربي من الفولانيين ، ونشر الإسلام بين شعوب البمبارة .

ومن الغريب أن كلا الحركتين ، حركة عثمان بن فودى وأحمدو لوبو قد حالفتا طريقة القادرية ، وأيدتا إلى أبعد الحدود هذه الطريقة التى نفذت إلى إفريقية العربية في القرن الخامس عشر على يد أحد مهاجرى توات . ثم اتخذت من منطقة ولاتة مركزاً لها ، ثم تدفقت إلى تنبكت(٤) . وفي مستهل القرن التاسع عشر امتدت إليها النهضة الروحية الكبرى التى انتشرت في العالم الإسلامى كله فاندفعت القادرية إلى غرب إفريقية . وأفادوا من حركات ابن فودى ، وأحمدو لوبو . وانتشرت انتشاراً واسعاً من برنو شرقاً حتى منحنى النيجر غرباً ، وقاموا بنشاط عظيم في إنشاء الزوايا والربط والمدارس ، وإرسال البعوث والتبشير بين الوثنيين فكأنها اضطاعت بالجهود السلمية في نشر الدين تاركة أمر الجهاد لمن هو أقدر عليه(٥) .

ثم امتدت الحركات الإصلاحية التى استهلها عثمان بن فودى إمتداداً سريعاً صوب الغرب في سرعة وعنف ، ووجدت استجابة عميقة وسريعة

(١) Fage, p. 146.

(٢) Dubois, p. 155.

(٣) Dubois, p. 150.

(٤) ارنولد ص ٣٦٢

(٥) L'Islam Noir, p. 49.

في جميع أرجاء غرب إفريقية ، مما يدل على أن هذه البلاد كانت مفتحة الأذهان لنداء الجهاد ، مهيئة لتقبل هذه الدعوات الإصلاحية المنطلقة من شمال نيجيريا .

وقد رأينا امتداد هذه الحركات إلى منطقة ماسنة على يد أحمدو لوبو ، ولكنها انطلقت صوب المغرب إلى حوض السنغال نفسه ، ومنها إلى منطقة فوتا الواقعة إلى الجنوب من السنغال الأدنى . هذه المنطقة التي نزلها التكرور ، واستطاعوا قبل غزوات المرابطين أن يتخطوا السنغال ويتوسعوا شمالاً صوب المغرب . كذلك خضعت هذه المنطقة لملوك غانة أو صوصو أو ملي ومنها انبعثت هجرات الفولاني متجهة صوب الشرق فوق سهول السودان[١] .

كان الإسلام قد تأصل في بلاد التكرور ربما أكثر من تأصله في أية بيئة إفريقية أخرى . أسلموا منذ أيام عبد الله بن ياسين ، واشتركوا في جهاده وتشربوا الثقافة الإسلامية ، وتعمقوا في فهمها . وأخلصوا لها كل الإخلاص وكانوا ألزم أهل السودان لأحكام الدين وشعائره .

في هذه البيئة ولد عمر الفوتي التكروري سنة ١٧٨٨ في قرية حلوار من بلاد ديمار ، بأرض فوتة[٢] .

وكان أبوه من المرابطين المتفقهين في الدين ، شأنه شأن غالبية أهل البلاد فرباه تربية دينية[٣] وتعلم علوم العربية ، والفقه والحديث والتوحيد ، حتى إذ بلغ مبلغ الشباب ظهر كرمه وقوة شخصيته ووفرة مهابته .

ثم ارتحل صوب الشرق يطلب المزيد من العلم ، فنزل مصر سنة ١٨٢٠ ، وتلقى العلم بالأزهر ، ثم غادر مصر إلى البلاد المقدسة وتنقل بين مدنها وقتاً طويلا ، وكانت الحجاز في ذلك الوقت مركزاً لحركات السلفية والثورات الدينية .

وليس ببعيد أن يكون الحاج عمر الفوتي قد لقي دعاة الوهابية وخالطهم وتشرب مبادئهم . وليس من المعقول أن تطول إقامته بالحجاز على هذا النحو

(١) Dubois, p. 157.
(٢) أبوبكر خالد عمريا : ص ١٧
(٣) ارنولد ص ٣٦٧

ولا يتصل بالوهابية ، كما اتصل بشيوخ التيجانية وأعجبته مبادئهم التي تدعو إلى الشدة ، بعكس مبادىء القادرية التي تدعو إلى التساهل والتسامح .

ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ، وغادرها إلى برنو ، ثم انتقل إلى بلاد الحوصة ، وكشف عن مبادئه ، فهو يبدو وهابياً متحمساً لمبادىء عثمان بن فودى محبذاً دعوته إلى الإصلاح[١] . يدل على ذلك أنه أخذ يعظ الناس ويحضهم على الرجوع إلى عقيدة السلف .

ثم مضى إلى مدينة سكت الحاضرة الروحية للدعوة الوهابية التي بثها عثمان بن فودى ، واتصل بالدعاة والزعماء ، وتزوج بنت السلطان محمد بل ابن عثمان . وجمعته بهم أواصر مودة وثيقة وتفاهم عميق[٢] .

وعاد إلى بلاد فوتا سنة ١٨٣١ وقد تشرب مبادىء الإصلاح واعتزم الجهاد . فلجأ إلى جبال فوتا جالون ، وأنشأ رباطاً للعبادة الروحية والتدريب على الحرب والإستعداد للجهاد ، مقلداً عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين.

وتوافد عليه المخلصون من أتباعه المستجيبين لدعوته ، وتسلح بأحدث الأسلحة ، التي اشتراها من التجار الأوربيين[٣] .

فلما شعر بقوته انحدر من رباطه سنة ١٨٤٨ ، وقد زاد أنصاره قوة في الروح وقوة في السلاح .

ولم تلق دعوته قبولاً من المتزمتين من التكرور الذين لم يألفوا الوهابية ونزعتها العنيفة في الإصلاح ، فهاجر كما هاجر عثمان بن فودى من قبل إلى مدينة دنكراى ، وبنى فيها قلعة حصينة ، ومنها أعلن الجهاد على الوثنية والبدعة والفساد .

استهل جهاده بغزو إمارة البمبارة في كارتة مركز الوثنية ، وهزم جيشها سنة ١٨٥٤[٤] ، واستولى على أهم مدنها ، وكان يريد أن تتعاون معه إمارة الفولاني في ماسنة لشن هجوم مزدوج على مدينة سيجو (سيقو) .

(١) أبوبكر خالد عمريا : ص ١٨

(٢) Fage, p. 138.

(٣) أبوبكر خالد عمريا : قوته السنغالية ص ١٧ — ١٨

(٤) Fage, p. 148.

فلما رفض ملوك ماسنة استدار عمر غرباً لمهاجمة مدن خاسو وجلام ، وهى إمارات صغيرة في السنغال الأوسط آوى إليها الفارون من جيش كارتة .

ولكن الفرنسيين كانوا قد بدأوا يتدخلون ، والتحم عمر بأول قوة فرنسية سنة ١٨٥٧[١]، فاتجه صوب الشرق واحتل مملكة سيقو سنة ١٨٨١ وماسنة في نفس السنة ، ودخل تنبكت سنة ١٨٦٣ ، وأقام دولة سلفية ممتدة من بلاد التكرور حتى تنبكت ولكنه فشل سنة ١٨٦٤[٢] .

واستطاع إبنه أحمدو بن عمر (حفيد السلطان محمد بل) أن يعيد وحدة الدولة سنة ١٨٧٢ ، متخذاً مدينة سيقو عاصمة له .

وظل كذلك حتى تقدم الفرنسيون سنة ١٨٨١ ، فطردوه من ماسنة وهرب إلى بلاد الحوصة ومات بها سنة ١٨٩٨ .

فكانت دولته آخر الدول التى شهدها غرب إفريقية قبل خضوعه للفرنسيين . ولما كان عمر تيجانيا فقد انتشرت التيجانية في منطقة نفوذه كما انتشرت القادرية في منطقة نفوذ عثمان بن فودى وأحمدو لوبو[٣] .

وكانت سلطنة برنو بحكم ظروفها وموقعها هدفاً للحركات الإصلاحية التى ظهرت بين إمارات الحوصة أو في طرابلس ،أو في سودان وادى النيل .

فقد سعت إليها مظاهر الضعف منذ القرن السابع عشر بسبب ضعف السلاطين ، وقلة انصرافهم لأمور البلاد ، وإغراقهم في اللهو والترف ، وتعرضت البلاد لغارات متصلة من الطوارق القادمين من الشمال أو الغرب المتقدمين عبر دارفور وكردفان واضطربت أمور الزراعة واجتاحت البلاد المجاعات والأوبئة[٤] . وأظلها القرن التاسع عشر وهى غير مهيئة لمقاومة التيارات الوافدة إليها .

---

(١) Dubois, p. 157.

(٢) Fage : op. cit., p. 148.

(٣) أرنولد ص ٤٦٦

(٤) Hogben, p. 191.

وامتدت إليها بحكم موقعها حركات الإصلاح ، امتدت إليها حركة الإصلاح التى اضطلع بها عثمان بن فودى ، فغزت قوات الفولا والحوصة بلاد برنو في عهد سلطانها محمد بن على ، فهزمت جيوشه وسقطت العاصمة سنة ١٨١٨ .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت مصلح من أهل برنو يدعى محمد الأمين الكانمى[١] . رحل هذا الرجل إلى مراكز الثقافة الإسلامية . رحل إلى الحجاز وأقام بالمدينة عامين ثم رحل إلى مصر وفاس وعاد إلى بلاده ينشر الحركة العلمية وذاع صيته لعلمه وتقواه .

وقد استنجد به ملوك برنو ، فتزعم حركة مضادة للفولانيين ، وطردهم من البلاد[٢] بعد قتال طويل ، ثم بايع نفسه بالسلطنة سنة ١٨٢٦ متخذاً مدينة كوكو عاصمة له ، وظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى خضعت للإحتلال البريطاني .

وتعرضت برنو لغارات رابح بن الزبير سنة ١٨٩٣ بعد طرده من واداى ، فاستولى على بلاد باجرمى وغزا برنو واستولى على عاصمتها ، وبقى فيها حتى طرده الفرنسيون منها سنة ١٩٠٠ . وخضعت برنو لحركات الإصلاح السنوسية ، فانتشرت بها زواياهم وكثر نشاطهم ، كما تعرضت للدعاية المهدية المنطلقة من سودان وادى النيل . وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركات الإصلاحية التى اجتاحت غرب إفريقية ؛ فترد للإسلام نقاءه وقوته وروحه المبدعة ، وتوطد أواصر الوحدة بين المسلمين ، لولا تعرض هذه البلاد لغارات الإستعمار ، ودخولها في دائرة النفوذ الفرنسى والبريطاني .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة برنو Palmer, p. 19.
(٢) تذكرة النسيان ص ١٩٥
(٣) نعوم شقير ص ١٢٧
(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ٤٢٧
(٥) Hogben, p. 194.

مراجع البحث

(ا) ــ المراجع العربية :

ابن الأثير : الكامل في التاريخ .
ليدن ١٨٦٦ ــ ١٨٧٤

الأدريسى : محمد بن عبد العزيز الشريف الغاوى .
المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ــ ليدن ١٨٩٦

أرنولد : الدعوة إلى الإسلام .
الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٠٧

ابن أبي زرع : أبو الحسن على بن عبد الله .
الأنيس المطرب بروض القرطاس ــ أوبسالة ١٨٤٢

ابن بطوطة : الرحلة ــ القاهرة ١٢٨٧ هـ

ابن حوقل : أبو القاسم محمد .
المسالك والممالك .

ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، بولاق ١٢٨٤ هـ

دائرة المعارف الإسلامية : مواد
غانة ــ ملى ــ كانم ــ برنو ــ فولبه

الدمشقى : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ــ بطربورغ ١٨٢٠

الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ــ تونس ١٣٢٠ هـ

السعدى : عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران
تاريخ السودان ــ نشرة هوداس ــ باريس ١٨٩٨

القلقشندى : صبح الأعشى ــ القاهرة ١٩١٥

محمود كعت التمبكتى : تاريخ الفتاش في أخبار البندان والجيوش وأكابر الناس ــ باريس ١٩١٣

(ب) — المراجع الأفرنجية :

Barth : Travels and discoveries in north and central Africa, London 1858.

Cooley : The Negroland of Arabs, London 1841.

De la Chapelle : Esquisse d'une histoire de Sahara occidentale, Hesperis, 1930, TX1.

Dubois : Tombauctou la Mysterieuse, Paris 1897.

Fage : An introduction to the history of West Africa, Cambridge 1955.

Hogben : The Mohammadan Emirates of Nigeria, Oxford 1930.

Massignon : Annuaire du Monde Musulman, Pairs 1955.

Meek : The Northern tribes of Nigeria, London 1925.

Palmer : The Bornu, Sahara and Sudan, London 1936.

Terrasse : Hist. du Maroc, 1946.

Trimingham : Islam in West Africa, Oxford 1959.